

الإسلام

وأثره في الثقافة العالمية

محمود الشرقاوي



كتاب شهري يصدر عن
رابطة العالم الإسلامي

السنة الرابعة عشرة
ربيع الآخر ١٤١٦ هـ

العدد
١٦٠



كتاب شهري يصدر عن
رابطة العالم الإسلامي

الإسلام

وأثره في الثقافة العالمية

محمود الشرقاوي

ربيع الآخر ١٤١٦ هـ - العدد ١٦٠ السنة الرابعة عشرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الاسلام دين عام شامل، يتناول شؤون الحياة كلها، وهو نظام كامل، ينظم أمور الدين والدنياء معاً، جاء به رسول الهدى ﷺ وقام بنشره والدعوة اليه الهداة من سلفنا الصالح، فنجحوا في تزكية النفوس، وتطهيرها بقدر ما أصلحوا من حياة الناس، وبلغوا في ذلك شأنًا لم ينله أحد من المصلحين أو كبار المربين.

انتشر الاسلام ديناً وظهر الاسلام دولة، وامتدت هذه الدولة لتشمل أجزاء كبيرة من العالم القديم، وقامت الدولة الاسلامية الكبرى التي امتدت من حدود الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً.

وانتقل الاسلام ليكون ديناً دون أن يرافقه حكم العرب المسلمين إلى أقطار أخرى كإندونيسيا والصين والفلبين وأجزاء وسط افريقيا.

وامتزج تحت الحكم العربي الاسلامي أبناء شعوب كثيرة اختلفت لغاتها وعاداتها وتقاليدها ولكنها جميعاً استظلت تحت دولة الاسلام.

تمتع العرب بقوة نشاطية لا مثيل لها تحدد عصراً مميزاً في تاريخ العالم أما ميولهم فكانت مضادة لروح التعصب، ولذلك استطاعوا أن يندمجوا في الشعوب التي انتصروا عليها، كما انه ينبغي أن نضع في حسابنا استعدادهم الطبيعي لاستعمال ملكاتهم العقلية^(١).

(١) ل. أ. سيديو: تاريخ العرب العام ٢ / ٣ - ٤.

كما كان للعرب أدب رفيع تمثل فيما قالوا من شعر اتصف بالحكمة والخيال وصفاء النفس وقوة الروح، وطبع بمبادئ أخلاقية مثلتها الفروسية العربية، كما نستطيع أن ندرك ما استبد بنفسيتهم عندما اختلطوا بثقافات الشعوب التي فتحوها من رغبة ملحّة إلى التعرف على هذه الثقافات، فأصبح التعليم في الدولة العربية الأساس الأول الذي قامت عليه دعائمها.

يقول الأستاذ «هوكينج» في كتابه عن مبادئ السياسة العالمية، مستقبل الحضارة العربية: إن الشغف بالعلم، والتعطش الدائم لارتداد مناهله، صفات امتاز بها هؤلاء العرب، وهي التي تمد عبقرياتهم بالقوة ويعشقون الحرية ويتطلعون دوماً إلى المثل العليا، بدون تعصب ولا تزمّت.

ويقول ألبير شامدور في كتابه «حمراء غرناطة» لقد عاش العربي في أرض قاحلة، تلهب الشمس رمالها، فاتخذ النجوم دليلاً، والعلم مرشداً، واستطاع أن يجمع علم العالم في أقل من مائة عام، كما استطاع أن يفتح نصف العالم، في أقل من مائة عام أيضاً، وترك لنا في حمراء غرناطة، آثار علمه وفنه، آثار مجده وفخاره.

ورث المسلمون مع فتوحهم فلسفة اليونان، وأفادوا من ثقافة الفرس والهند والصين والثقافة العربية الأصيلة، وأفسحوا صدورهم لهذه الثقافات والحضارات المختلفة، وأقبلوا عليها، وتولوها بالرعاية والعناية والبحث والدرس، والتصحيح والتهذيب، وأضافوا إليها الكثير من أفكارهم وابتكاراتهم، حتى بلغت غاية نضجها واكتمالها، وتميزت عما عداها من الحضارات السابقة.

والحضارة الاسلامية لا ينتقصها ولا يقلل من شأنها أنها أفادت من الحضارات التي سبقتها، فإن نتائج العلوم وثمرات الأفكار كالماء والهواء لا تحدها الأقطار، ولا تحاجز دونها الأمصار، لأنها لا تقع في قبضة أحد، وإن فكرة سامية تجود بها خاطرة عالية لا تلبث أن تنتشر في الآفاق انتشار النور في الظلمة، وتنقشع بها غياهب الجهالة في كل مكان حلت فيه .

لقد أضاءت الحضارة الاسلامية الطريق لأوروبا، فقامت حضارتها وتقدمت في خطى ثابتة واسعة حتى وصلت إلى منتهى ما أمكن للعقل البشري أن يصل اليه .

وكان من الطبيعي أن تزدهر الأمة الاسلامية وتقوى شوكتها في كل الميادين وخاصة الناحية العلمية والثقافية لأن التشريع الاسلامي ركز على العلم والتعلم حتى كانت أول آيات القرآن الكريم نزولا توجه إلى العلم والتعلم، وانما كان ذلك حينما كانت الأمة الاسلامية مستمسكة بتعاليم الدين وأحكامه وتسير في ضوء تعاليمه وارشاداته . ولقد عقدت مؤتمرات دولية في العصر الحديث في لاهاي سنة ١٩٤٩ وفي باريس سنة ١٩٥١ بحثت فيها بعض أحكام التشريع الاسلامي ونظرياته وقرر المؤتمر أن الشريعة الاسلامية مصدر خصب من مصادر التشريع العام (القانون المقارن) وأنها شريعة حية صالحة للتطور .

ونحن على ثقة من أن الفقه الاسلامي بمذاهبه العديدة وآرائه المختلفة اذا استوعبت أحكامه وأجهد الفقهاء في العصر الحاضر أنفسهم لمواجهة الحياة مواجهة فعلية، ونظروا في كل جديد على

ضوء روح التشريع وأسس القويمه، ودعائمه القوية لمَّا تخلفنا عن
الركب الحضارى ولأمكننا السير في الطليعة ولاستحال على الجاحد
المبغض أن يصف الاسلام بوصف غير أنه تقدمي يحث على البحث
والنظر والاجتهاد للتعرف على مايمكن للعقل ادراكه مما في الكون
من أسرار والأخذ بكل مايفيد البشرية من علوم ومعارف .

وماأحوجنا نحن أبناء هذه الحضارة اليوم لدراستها، وماأشد
حاجتنا إلى التعرف على أصولها ومقوماتها، وإلى التنقيب عن مكامن
منابعها التي طمرتها الأيام، وليس من أجل أن نتباهى بماض اندثر،
ولكن لكي نعمل على استعادة ماضينا المجيد ونتيقظ لما يجرى من
حولنا في هذه الحياة ونأخذ دورنا الرائد فيها .

والعالم الاسلامي في حاجة إلى مراجعة تاريخية لمعرفة نفسه
والعثور على جوهره الحقيقي في هذا الصراع الثقافي والاقتصادي
والسياسي الذي يواجهه لاثبات ذاته، ولنقرأ هذه الصفحات لتكون
لنا حافزا على العمل الجاد، ولنتذكر ونتدبر بعمق، ولنعد لاسلامنا
كي نعود لنا حضارتنا الانسانية الوارفة الظلال .

والله تعالى نسأل أن يوفقنا إلى الخير دائما وأن يهدينا الصراط
المستقيم، وأن يصلح آخر هذه الأمة بما صلح به أولها، ولقد تكفل
القرآن المجيد باصلاح هذه الأمة، فليس هناك من أمل في فلاح
ولارجاء في تقدم ورقي الا أن نأخذ هذاالكتاب بقوة ونعتصم به
وندور حول رايته مستهدفين روحه من أجل اسعاد البشرية .

والله ولي التوفيق،

محمود على الشرقاوى

الفصل الأول

- العلم فى الإسلام .
- مراكز العلم فى الدول الإسلامية :
- ١ – المساجد .
- ٢ – الكتاتيب .
- ٣ – مدارس الكبار .
- ٤ – مجالس العلماء .
- ٥ – المكتبات .
- الفتح الإسلامى وأثره فى الثقافة .
- عناية علماء المسلمين بنشر الثقافة العالمية عن طريق الترجمة .

العلم في الاسلام

دعى الاسلام إلى العلم، وحث الناس على التزود منه ودفعهم إلى ذلك دفعا قويا بقوله لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وقل رب زدنى علما﴾: «سورة طه: الآية ١١٤».

وقال جل شأنه: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط﴾ «سورة آل عمران: الآية ١٨» فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه، وثنى بالملائكة، وثلاث بأهل العلم، وناهيك بهذا شرفا، فضلا، وجلاء ونبلا.

وقال تعالى ﴿قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ «سورة الزمر الآية ٩». وقد كان أول نداء إلهي يفتح به الله باسم «الربوبية» وحيه إلى نبيه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، تلکم الآية الکریمه: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الانسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الانسان ما لم يعلم﴾ «سورة العلق: الآيات ١-٥».

أمر بالقراءة، والقراءة طريق العلم والمعرفة، ثم يرشد إلى الاستعانة عليها باسم «الرب» مفيض التربية ووسائلها على جميع الخلق، فيشعر الانسان بعزّة شأنها ورفعة قدرها، وأنها من الشؤون العظمى، ذات البال والخطر، ثم يذكر خلقه وتكوينه في هذا المقام ويردّفه بنعمة العلم: ﴿الذي علم بالقلم. علم الانسان ما لم يعلم﴾ وبذلك يسوّى بين نعمة الخلق والايجاد، ونعمة العلم، ويكون ذلك

ايحاء بأن المخلوق الجاهل لا اعتداد بوجوده في هذه الحياة وتنويعها بشأن القلم ومكانته في العلم والمعرفة، يقسم به الله تعالى في معرض تبرئة الرسول عليه الصلاة والسلام من أفدح التهم الباطلة التي ألصقها القوم به عليه السلام وهي تهمة الجنون: ﴿ن والقلم وما يسطرون. ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾

«سورة القلم الآيتان ١-٢».

والعلم هو نور البصر والبصيرة، بينما الجهل هو الظلمة، بل والعمى ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى، إنما يتذكر أولو الألباب﴾ «سورة الرعد: الآية ١٩».

والعلم هو السر والسبب الذي من أجله استحق الانسان شرف الخلافة في الارض، عن الله سبحانه وتعالى، فجاز بهذا الشرف دون سائر المخلوقات: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة. قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك. قال إني أعلم ما لا تعلمون. وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضها على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ «سورة البقرة: الآيات ٣٠-٣٣». فتجلت للملائكة حكمة استخلاف الانسان في الأرض، واعترفوا له بالمكانة التي أعدت له في هذه الحياة.

والسنة النبوية تفيض في ذكر الأحاديث التي ترفع مكانة

العلماء . قال الرسول الكريم : (مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء ، يهتدى بها في ظلمات البر والبحر ، فإذا انطمست النجوم أو شك أن تضل الهداة) رواه الإمام أحمد . وقال عليه الصلاة والسلام : (من سلك طريقا يتغى به علما سهل الله له طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما صنع ، وإن طالب العلم ليستغفر له من في السماء والأرض حتى الحيتان في الماء . وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب . إن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر) « رواه الترمذي ، وابن ماجه ، وأبوداود ، والدرامي وابن حنبل » .

والعلم ليس خاصا بعلم الشرائع والأحكام من حلال وحرام وإنما العلم هو ادراك يفيد الانسان توفيقا في القيام بمهمته العظمى التي القيت على كاهله منذ قدر خلقه ، وجعل خليفة في الأرض ، وهى عمارتها ، واستخراج كنوزها ، واظهار أسرار الله تعالى فيها .

فعلم ما يصلح به النبات وينمو ويثمر ، وما تستنبت به الأرض وتحيا ، علم مطلوب دراسته وتعلمه . وما يصلح الحيوان ويسخره لخدمة الانسان واكتمال الانتفاع به علم يدعو القرآن إلى تعلمه . وطرق الكسب المشروعة لتحصيل المال واستثماره على الوجه الذى ينظم موارده ومصارفه علم يجب التعرف عليه والتسلح به .

والتعرف على الصناعات بأنواعها التي تيسر للانسان سبل الحياة وتمكنه من الانتفاع بالقوى الكامنة فيما خلق الله هو علم مطلوب منا الوقوف عليه .

وما يحفظ به الأنفس من التهلكة بمقاومة الأمراض والعلل وطرق علاجها والوقاية منها، وكل ما يحقق للناس الشفاء والصحة علم يجب التزود به .

وكل ما يمكن اعداده من قوى يدفع بها الأذى والعدوان، ونرهب به من تحدته نفسه العبث بالأمن والسلام علم يجب التعرف عليه والاستفادة منه لاقرار الأمن والسلام . كل هذا وغيره مما يفيد البشرية وينفعها أو الأصل فيه ذلك من العلم الذي حث القرآن، وحث السنة النبوية على تعرفه والتزود به .

وبذلك كله كان العلم هو العنصر الأول من عناصر الحياة في نظر الاسلام، وهذا مادفع بعض المفسرين إلى تفسير « العمل الصالح » بأنه العمل القائم على العلم، وليس على الظن والوهم^(١) .

يقول الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ يُوْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ « سورة البقرة : ٢٦٩ » .

ما يلي « الحكمة » هنا العلم الصحيح، يكون صنعه محكمة في النفس، حاكمة على الإرادة، توجهها إلى العمل ومتى كان العمل صادرا عن العلم الصحيح كان هو العمل الصالح المؤدى إلى السعادة، وكم من محصل لصور كثيرة من المعلومات خازن لها في دماغه ليعرضها في أوقات معلومة، لا تفيده هذه الصور التي تسمى علما- في التمييز بين الحقائق والأوهام، لأنها لم تتمكن في النفس

(١) ليس في الاسلام عمل صالح يقوم على الظن والوهم . مصححه .

تمكنا يجعل لها سلطانا على الارادة، وإنما هي تصورات وخيالات تغيب عند العمل وتحضر عند المراء والجدل .

والمراد بايتائه الحكمة من يشاء، اعطاء آلتها- العقل- كاملة، مع توفيقه لحسن استعمال هذه الآلة في تحصيل العلوم الصحيحة، فالعقل هو الميزان القسط الذي توزن به الخواطر والمدركات، ويميز به بين أنواع التصورات والتصديقات، فمتى رجحت فيه كفة الحقائق طاشت كفة الأوهام، وسهل التمييز بين الوسوسة والالهام .

إن الله جعل الخير الكثير مع الحكمة في قرن - فالحكمة هي العلم الصحيح المحرك للارادة إلى العمل النافع الذى هو الخير . وآلة الحكمة، هي العقل السليم المستقل بالحكم في مسائل العلم، فهو لا يحكم الا بالدليل، فمتى حكم جزم، فأمضى وأبرم، فكل حكيم، عليم، عامل، مصدر للخير الكثير، ولذلك قال تعالى : ﴿ وما يذكر الا أولوا الأبواب ﴾ « البقرة ٢٦٩ » وقد جرت سنته تعالى بأنه لا يتعظ بالعلم، ولا يتأثر به تأثرا يبعث على العمل الا أصحاب العقول الخالصة من الشوائب (١) .

وقد أدرك المسلمون الأولون ايحاء القرآن في كل ذلك فأدركوا قيمة العلم ومنزلته وضرورته في سعادة الأمم والأفراد . كانوا أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب، يقول البلاذرى في كتابه « فتوح البلدان » « ان الاسلام دخل وفى قریش سبعة عشر رجلا كلهم يكتب هم : عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وعثمان بن عفان . . . » فإذا كانت

(١) محمد عبده: تفسير المنار ج ٣، ص ٣٥ وما بعدها . .

قريش وهي التي لها الصدارة في الحجاز ليس فيها الا سبعة عشر كاتباً فكيف غيرها؟ ولندرة الكتاب وأهمية الكتابة كان يلقب كل من يجيد الكتابة والرمي بالسهم بالكامل مثل سعد بن أبي عباد.

لقد جد المسلمون في محو أميتهم بكل الوسائل، وكان أول قانون لمحو الأمية في المجتمع الاسلامي بعد غزوة بدر الكبرى حيث أسر المسلمون سبعين أسيراً فكان يفادى بهم على قدر أموالهم فمن لم يكن له فداء وكان يجيد الكتابة طلب منه تعليم عشرة من أبناء المسلمين الكتابة.

وحدث الرسول الصحابة على تعلم اللغات الأخرى. فعن زيد بن ثابت قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني أكتب إلى قوم وأخاف أن يزيدوا على أو ينقصوا فتعلم السريانية»^(١) فتعلمها في سبعة عشر يوماً.

ولم يختص الرسول الرجال بالعلم والتعليم، بل إنه كان يحرص على أن يكون حظ المرأة من ذلك موفوراً. فعن أبي سعيد قال: «جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، ذهب الرجال بحديثك فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه، تعلمنا مما علمك الله. فقال اجتمعن في يوم كذا وكذا فأتاهن فعلمهن مما علمه الله» أخرجه البخاري.

روى البلاذري في كتابه «فتوح البلدان» أن الشفاء العدوية، وهي سيدة من بنى عدى رهط عمر بن الخطاب، كانت كاتبة في الجاهلية، وكانت تعلم الفتيات، وأن حفصة بنت عمر أخذت عنها

(١) ابن الأثير: أسد الغابة ج ٢، ص ٢٧٩.

القراءة والكتابة قبل زواجها بالرسول عليه الصلاة والسلام. ولما تزوجها عليه السلام طلب إلى الشفاء العدوية أن تتابع تعليمها وأن تعلمها تحسين الخط وتزيينه كما علمتها أصل الكتابة وروى الواقدي أن عائشة وأم سلمة زوجتي الرسول عليه الصلاة والسلام تعلمتا القراءة والكتابة، وأنهما كانتا تقرأن. وتدل شواهد كثيرة، أن أبواب التعلم والثقافة بمختلف صنوفهما كانت مفتحة على مصارعها للبنات العربية منذ عصر بني أمية، وأنه قد نبغ بفضل ذلك عدد كبير من النساء العربيات، وبرزن في علوم القرآن والحديث والفقه واللغة وشتى أنواع المعارف والفنون، بل لقد كانت منهن معلمات فضليات تخرج على أيديهن كثير من أعلام الاسلام. فقد ذكر ابن خلكان أن السيدة نفيسة بنت الحسين بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، كان لها بمصر مجلس علم حضره الامام الشافعي نفسه، وسمع عليها فيه الحديث، وعد أبو حيان من بين أساتذته ثلاثا من النساء هن: مؤنسة الأيوبية بنت الملك العادل (أخو صلاح الدين الأيوبي)، وشامية التيمية، وزينب بنت المؤرخ الرحالة عبداللطيف البغدادي.

لقد قرر الاسلام أن يعامل الناس جميعا على قدم المساواة في الحقوق العامة كحق التعليم والثقافة بدون تفرقة بين شريف ووضيع، ولا بين غني وفقير، ولا بين قريب وبعيد، ولا بين مسلم وغير مسلم، ولا بين رجل وامرأة، فالعدالة الاسلامية لها ميزان واحد يطبق على جميع الناس.

وقد بدأت حركة التعليم والعلم في الدولة الاسلامية منذ نشأتها

وتطور مراكز نقله من المسجد إلى الكتاتيب ثم المدارس والجامعات. ولقد خرجت هذه المراكز جماعة من أعظم الرجال والعلماء الذين علموا وخرجوا من تحتهم الفقهاء والعلماء وكبار المفكرين.

وظهر من علماء مكة رجيل الصحابة الأول مثل: معاذ بن جبل، وعبد الله بن العباس، ومن التابعين: مجاهد بن جبير، وعطاء بن أبي رباح، وطاووس بن كيسان، وقد تخرج من مدرسة مكة طائفة من العلماء كان منهم الامام الشافعي.

وفي المدينة تعلم الصحابة علوم الدين على يد الرسول الكريم وتخرجوا من مدرسته، ومن أشهر من تخرج من هذه المدرسة من الصحابة: علي بن أبي طالب - كرم الله تعالى وجهه -، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن مسعود وغيرهم. وقد ارتحل بعض هؤلاء العلماء وغيرهم إلى الأمصار لتفقيه الناس في أمور دينهم، وعقدوا مجالسهم العلمية في المساجد فكانوا أساس الحركة العلمية في الأمصار^(١).

وكانت عناية المسلمين في صدر الاسلام مقصورة على العلوم الدينية والشرعية ولكن مع قيام الدولة الأموية بدأ الاهتمام بالعلوم الأخرى، وقد بلغت الحركة العلمية ذروتها في المجالين النقلى والعقلى^(٢) في العصر العباسي.

(١) أحمد أمين: ضحى الاسلام ج٢، ص ٧٣-٧٤.

(٢) العلوم النقلية هي: علم القراءات، وعلم التفسير، والفقه، والنحو، واللغة والأدب، والعلوم العقلية هي: الفلسفة، والهندسة، وعلم النجوم والموسيقى. والطب والكيمياء، والتاريخ والجغرافيا.

مراكز العلم في الدولة الاسلامية

١- المسجد : كان المسجد هو المدرسة الأولى في الاسلام، وقد عقدت فيه حلقات الدرس والتدريس إلى جانب كونه دارا للعبادة. وكان مسجد الرسول قلب المدينة النابض بالحياة ومركز خدمة المجتمع^(١) الاسلامي ومجمع أهل الرأي والشورى، ومحور أنشطة الدولة ومصالحها المتعددة. فقال عنه الامام ابن تيمية: إن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أسسه على التقوى، وكان فيه « الصلاة والقراءة والذكر وتعليم العلم والخطب، وفيه السياسة، وعقد الأولوية والرايات، وتأمير الامراء وتعريف العرفاء، وفيه يجتمع المسلمون عنده لما أهمهم من أمر دينهم ودنياهم^(٢) ».

كان الرسول هو المعلم الاول في الاسلام، وكان يتخذ مسجده مقرا للدرس والتعليم، وقد ظل مسجد الرسول بالمدينة كذلك مقرا للتعليم عل عهد الخلفاء الراشدين، وكان المعلم يجلس في جزء من المسجد ومن حوله يلتف طلاب العلم في حلقات، وكان طالب العلم يحضر حلقة أستاذه وشيخه وعندما يستكمل محاضرات أستاذه وينجح فيها يجيزه أستاذه ويسمح له بتعليم الفرع الذي درسه وأتقنه في حلقة مستقلة يقوم بالتدريس فيها^(٣).

وكان العلماء الذين يدرسون في المساجد لا يتقاضون أجرا

(١) في سيرة أحمد بن ابراهيم الجزار- وهو من أعظم أطباء المسلمين وكان قيروانيا- أنه كان يخرج بعد صلاة العشاء ويقف على باب الجامع ليداوي المرضى من الفقراء، وكان يصطحب عبدا يحمل أصناف الأدوية فيعطيه منها مايرى، وكان يعمل ذلك حبا في الله، وبراً بأمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، وعلى هذا كان الكثيرون من صلحاء أهل الطب (د. حسين مؤنس: المساجد. الكويت ربيع الأول ١٤٠١هـ، ص ٥٤).

(٢) على عبدالحليم محمود: المسجد وأثره في المجتمع الاسلامي، ص ٣٣.

(٣) أحمد أمين: ضحى الاسلام، ج٢، ص ٥٢.

على تدريسهم فقد كانوا يبتغون الأجر من الله تعالى، وكان الطلاب يفدون اليهم من البلاد النائية تاركين أوطانهم وأهليهم ابتغاء تحصيل العلم.

وقد اتسعت المساجد في العهد الأموي وازداد عددها، وكانت حلقات هذه المساجد النواة العلمية للدراسات الجامعية في أسلوبها الذي يعتمد على المناقشة والمناظرة. وكان القرآن المجيد هو محور علوم المسلمين، ومن مدارسته ظهر علم التفسير وعلم الحديث، كذلك ظهر الاهتمام بعلوم اللغة والتاريخ، وتشعبت الدراسة عند المسلمين بعد ذلك إلى بقية العلوم العملية. وإضافة إلى التعليم في المساجد عرف المسلمون منذ العصر الأموي التعليم في الكتاتيب وفي المدارس.

٢- الكتاتيب :

انشئت الكتاتيب، ومفردتها « كتاب » لتعليم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم ومبادئ علم الحساب، وكان الكتاب أسبق أنواع المعاهد التعليمية وجودا في العالم الإسلامي بعد المسجد، وكان بداية ظهوره في العهد الأموي. وكانت هذه الكتاتيب تستقبل الصبيان والبنات على حد سواء، وبذلك سبق العرب منذ ألف عام العالم كله في إباحة حق تعليم المرأة، وهو فضل للعرب على الحضارة العالمية لا يمكن إنكاره^(١).

وقد استمرت هذه الكتاتيب قائمة تؤدي دورها التعليمي على

(١) أحمد فؤاد الأهواني: فضل العرب على الحضارة العالمية. محاضرة في العام الجامعي ٥٨-٥٩،

أحسن وجه في العالم الاسلامي حتى العصر الحديث، ولكن للأسف ألغى نظام الكتاتيب في القرن الحالي من كثير من بلاد العالم الاسلامي وان ظلت بعض الكتاتيب في بعض البلدان وحملت اسم الزوايا أو الخلاوي^(١).

٣- مدارس الكبار:

وهي مدارس ينتقل اليها الطلاب بعد إكمال دراستهم بالكتاتيب من اتمام للقرآن ومعرفة لقواعد اللغة والحساب وهي مدارس متخصصة يذهب اليها التلاميذ للتخصص في نوع من أنواع العلوم.

وكانت بداية نشأة هذه المدارس في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، وكانت أول مدرسة انشئت من هذا النوع «المدرسة الصادرية» التي انشئت في الشام سنة ٣٥٠ هـ. وأُسست في منتصف القرن الخامس سلسلة من المدارس على نسق المدرسة الصادرية، وتأتي في مقدمتها المدرسة البيهقية في نيسابور والمدرسة السعدية بها^(٢).

وتأتي المدرسة النظامية في بغداد أشهر مدرسة أسست على نظام نموذجي نسجت على منواله المدارس في مدن العالم الاسلامي الرئيسية، وتنسب المدرسة النظامية، إلى الوزير نظام الملك، وزير السلطان السلجوقي «ألب أرسلان» سنة ٤٥٩ هـ^(٣).

(١) تسمى الكتاتيب بالزوايا في ليبيا، بينما تسمى بالخلاوي في السودان.

(٢) ناجي معروف: نشأة المدارس المستقلة في الإسلام. بغداد ١٩٦٦، ص ٤/٥.

(٣) أحمد الشطبي: مجموعة أبحاث في الحضارة الإسلامية، دمشق ١٩١٣، ص ٩٠.

وقد استمر تأسيس المدارس في بغداد حتى بداية القرن السابع الهجري، فقد أسس الخليفة العباسي المستنصر بالله سنة ٦٢٥هـ فيها المدرسة المستنصرية، ووصل عدد هذه المدارس ببغداد سنة ٦٥٦هـ ثمان وثلاثين مدرسة^(١).

وقد شاع تأسيس مثل هذه المدارس في جميع الحواضر الإسلامية، وحدثنا بذلك الرحالة المسلم ابن جبير، الذي زار الشام والعراق ومصر في أواخر القرن السادس الهجري، وكتب عن هذه المدارس ووصفها في كتاب رحلته الشهير.

وكان نصيب مصر كبيراً من هذه المدارس في عصر الفاطميين والأيوبيين والمماليك، فقد بلغ عدد مدارس القاهرة وحدها، وفي عهد الفاطميين، نحو عشرين مدرسة، وأسس الخليفة الحاكم بأمر الله بها داراً عامة للعلم أسماها دار العلم أو دار الحكمة، قرر لها المدرسين والمعيدون وألحق بها مكتبة كبيرة امتلأت بالمؤلفات النادرة.

ومن أشهر مدارس الأيوبيين: المدرسة الصلاحية بالقدس، وكان قد أنشأها السلطان صلاح الدين الأيوبي، والمدرسة العادلية بدمشق، التي بناها أخوه الملك العادل، والمدرسة المهديية بالقاهرة، والناصرية بالفسطاط، وقيل أن مدارس الأيوبيين في مصر قد وصلت إلى نحو خمسة وعشرين مدرسة. وكان في بعض المدن الرئيسية في الأندلس مدارس كبرى في قرطبة وأشبيلية وغرناطة، وبلغ عدد المدارس في قرطبة وحدها، في خلافة الحكم المستنصر (الثاني) ابن عبد الرحمن الناصر (٣٥٠-٣٦٦هـ) ثمانين مدرسة، وكان في

(١) ناجي معروف: نشأة المدارس المستقلة، ص ٥.

غزناطة سبع عشرة مدرسة إضافة للجامعة العلمية الكبرى التي أسسها يوسف أبو الحجاج سابع سلاطين بني نصر.

وكان التعليم بالمجان، بل كانت تقدم للطلاب المكافآت التشجيعية، واتجه إلى المدارس الإسلامية طلاب العلم من مختلف البلاد في الدولة الإسلامية كما اتجه إليها طلاب العلم من جميع أنحاء العالم الإسلامي والعالم المسيحي على السواء. وكان يسود الجميع روح المحبة الصادقة والزمالة المخلصة.

وتؤكد الروايات أن من هؤلاء الرواد البابا سلفستر الثاني عشر الذي جاء إلى قرطبة أيام أن كان راهبا ليتلقى العلم فيها، وكان بعد ذلك من علماء البابوات.

ومن بين العلماء الأفاضل الذين قاموا على تربية النشء وعكفوا على تعليمه في العلوم العربية والإسلامية أبو بكر بن معاوية الذي أخذ حلقة لتدريس حديث رسول الله ﷺ، وأبو علي القالي العالم البغدادي، وصاحب كتاب «الأمالى» والذي وفد على الأندلس أيام الناصر كان يحاضر في التاريخ العربي والآداب العربية، ثم ابن القوطية أستاذ اللغة والقواعد النحوية.

يقول الأستاذ جونثالت فالنتينا نقلا عن العلامة دوزى أن المواد التي كانت تدرس في التعليم (الجامعي) العالى هي كما يلي: القراءة والكتابة، وحفظ القرآن الكريم، وتفسيره، وشرح الحديث النبوى، وعلم الموايرث، والفقه وأصول اللغة، وجميع العلوم التي تتصل بالقرآن الكريم كعلم التوحيد، وقواعد اللغة العربية، وتاريخ العرب، ثم النظم والنثر والطب والفلسفة، وعلم النجوم والموسيقى.

وكان التلميذ الذي يأنس الأستاذ منه الكفاية، ويلاحظ فيه القدرة على التدريس يعطيه إجازة مكتوبة، وقد تطورت هذه الظاهرة في أيامنا المعاصرة إلى الاجازات الأكاديمية الجامعية^(١).

٤- مجالس العلم :

وإلى جانب الكتاتيب والمدارس النظامية، كانت مجالس العلم الخاصة تساهم في نشر العلم والثقافة في المجتمع الاسلامي، وكانت هذه المجالس تعقد في قصور الخلفاء والوزراء والأمراء والولاة، وكان يحضر اليها كبار العلماء، وكانوا يعقدون مجالس المناظرة والمساجلة التي كانوا يحضرونها وكانت تتناول القضايا المختلفة ويدور النقاش فيها بحرية تامة.

٥- المكتبات :

اشتهر كل من القاهرة وبغداد ودمشق وقرطبة بمكتباتها العامة التي حوت الآلاف من الكتب والمخطوطات النادرة. وقد ساعد انشاء المكتبات على اطراد الحركة العلمية وتقدمها، وكذلك ساعد الدارسين في بحوثهم وأدى إلى حركة الترجمة الواسعة التي شهدها العصر العباسي الأول، وبخاصة عصر المأمون.

وقد انشئت المكتبات أول الأمر في المساجد، ثم الحقت بها، لكن انشاء المكتبات المستقلة بدأ يظهر في العصر العباسي الاول، واستمر بعد ذلك في بقية العهود الاسلامية، وقد احتوت هذه المكتبات على خزائن كبيرة لحفظ الكتب، كذلك حوت على

(١) جودة هلال ومحمد محمود صبح: قرطبة في التاريخ الاسلامي. القاهرة ١٩٦٢، ص ٨٨-٨٩.

قاعات مخصصة للمطالعة، إضافة لحجرات خاصة للنسخ والترجمة .
وتعد مكتبة بيت الحكمة، أو خزانة الحكمة التي أسسها
هارون الرشيد واكتملت في عهد المأمون، من أشهر مكتبات بغداد،
وقد احتوت هذه المكتبات على أعداد كبيرة من الكتب، وكانت
تضم غرفا خاصة للترجمة والنسخ، وكان المأمون قد أرسل قيصر
الروم وجلب من بلاده ما عنده من كتب نادرة وأمر المترجمين في
هذه المكتبة بترجمتها من الإغريقية والسريانية إلى اللغة العربية^(١) .

ومن مكتبات بغداد الشهيرة المكتبة التي ألحقت بالمدرسة
النظامية وكانت ذات قاعات واسعة للمطالعة، وهي مزودة بصهاريج
تمدها بمياه الشرب، وقد بلغ عدد الكتب التي كانت تحويها هذه
المكتبة نحو ٨٠ ألف مجلد . قال ابن الجوزي: «ولقد نظرت في
ثبث الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية فإذا به يحتوى على ستة
آلاف مجلد^(٢) .

ومن أشهر مكتبات القاهرة خزانة الحكمة التي أنشأها
الفاطيون . قال المقرئ عن دار الحكمة « قال الأمير المختار عز
الملك محمد بن عبد الله المسبحى وفي يوم السبت هذا - يعني
العاشر من جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلاثمائة فتحت الدار
الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة . وجلس فيها الفقهاء، وحملت الكتب
اليها من خزائن القصور المعمورة، ودخل الناس اليها ونسخ كل من
التمس نسخ شيء مما فيها ما التمس، وكذلك من رأى قراءة شيء مما

(١) أحمد أمين: ضحى الاسلام ج٢، ص ٦١ .

(٢) ابن الجوزي: صيد الخاطر، ص ٣٦٦ .

فيها، وجلس فيها القراء وأصحاب النحو واللغة والأطباء بعد أن فرشت هذه الدار وزخرفت وعلقت على جميع أبوابها وممراتها الستور، وأقيم قوام وخدام وفراشون وغيرهم وسموا بخدمتها. وحصل في هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التي أمر بحملها اليها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة مالم ير مثله مجتمعاً لأحد قط من الملوك، وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها فكان ذلك من المحاسن الماثورة أيضاً التي لم يسمع بمثلها من جراء الرزق السنّي لمن رسم بالجلوس فيها والخدمة لها من فقيه وغيره، وحضرها الناس على طبقاتهم: فمنهم من يحضر لقراءة الكتب، ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للتعليم، وجعل فيها ما يحتاج الناس اليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر^(١).

ومن أشهر مكاتب بلاد الشام المكتبة التي أنشأها الفاطميون في طرابلس بالشام، كذلك الخزائن النورية التي أنشأها نورالدين محمود زنكي ومكتبة أنطاكية، ومكاتب دمشق وحلب التي كانت ملحقة بمدارسها.

مكاتب الأندلس:

أسس الحكم بن الناصر (ت ٣٦٦هـ) مكتبة في قصره في قرطبة، وزاد عدد كتبها عن الأربعمئة ألف كتاب، وكان بالأندلس في أواخر القرن الخامس الهجري، نحو سبعين مكتبة عامة. ويقول الكاتب الأوربي «كوندى» Gonde «ان الأسبان عند استيلائهم على

(١) المقرئى: الخطوط ج١، ص ٤٥٩.

قرطبة من يد المسلمين، أحرقوا في يوم واحد نحو سبعين خزانة للكتب حوت أكثر من مليون مجلد .

ويقول المؤرخ الفرنسي جوستاف لوبون « وأحرق رئيس الأساقفة الأسباني « شمينيس » مخطوطات العرب وتقدر بثمانين ألف كتاب وظن أنه بفعلته هذه قد محى ذكر العرب من صفحات التاريخ الأسباني نهائيا، ولم يكن يدرك أن ماتركه العرب من الآثار التي تفيض بها مدن أسبانيا بالاضافة إلى آثارهم الفكرية إنما يكفى لتخليد اسمهم إلى الأبد ^(١) .

واضافة للمكتبات العامة، كانت هناك المكتبات الخاصة التي يمتلكها الوزراء والأمراء والعلماء والأعيان من التجار الذين شغفوا بالعلم وبالاطلاع وجمع الكتب لتكون هذه الكتب في متناول أيديهم ومتناول من يطلبها من الدارسين تيسيرا لأموهم في مواصلة مسيرة البحث العلمي .

ولم يقف الأمر في العناية بالكتب في العصور الاسلامية عند الاهتمام بصناعتها وانتاجها وتيسير الانتفاع بها بل تعدى ذلك إلى تنشئة طلاب العلم على الاهتمام بها وتلقينهم طرق الانتفاع بها . وقد أفرد ابن جماعة (ت عام ٧٣٣ هـ في كتابه « تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم » بابا في الآداب مع الكتب التي هي آلة العلم وما يتعلق بتصحيحها وضبطها وحملها ووضعها وشرائها ورعايتها ونسخها إلى غير ذلك . وقد بدأ ابن جماعة الباب بحث الطالب على

(١) جوستاف لوبون : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعبيتر ، ص ٢٨٢ .

العناية بتحصيل الكتب سواء بالشراء أم بالإجارة أم العارية، وحسن له ألا يشتغل بنسخها إلا للضرورة. وحيد إعارة الكتب « لمن لا ضرر عليه فيها ممن لا ضرر منه بها وعلى المستعير للكتاب أن « لا يطيل مقامه عنده من غير حاجة بل يرده اذا قضى حاجته ولا يحبسّه اذا طلبه المالك أو استغنى عنه، ولا يجوز أن يصلحه بغير اذن صاحبه « وكذلك » اذا نسخ من الكتاب أو طالعه فلا يضعه على الأرض مفروشا منشورا بل يجعله بين كتابين أو شيئين أو كرسي المكتب المعروف كيلا يسرع تقطيع حبله » وأوصى بتفقد الكتاب عند شرائه أو استعارته .

« اذا استعار كتابا فينبغي أن يتفقده عند ارادة أخذه ورده، واذا اشترى كتابا تعهد أوله وآخره ووسطه وترتيب أبوابه وكراريسه ويصفح أوراقه وأعتبر صحته ومما يغلب على الظن صحته اذا ضاق الزمان عن تفتيشه » ووجه الطالب الى اجتناب الكتابة الدقيقة في النسخ « فإن الخط علامة فأبينه أحسنه » وفضل له استعمال الحبر على المداد لأنه أثبت، وشرح له صنعة قلم الكتابة « قالوا: ولا يكون القلم صلبا جدا فيمنع سرعة الجرى، ولا رخوا فيسرع إليه الحفا. وقال بعضهم: اذا أردت أن وجود خطك فأطل جلفتك وأسمنها وحرف قطتك وأيمنها » .

وأوضح للطالب طريقة تصحيح الكتاب ومقابله على أصله الصحيح أو على الشيخ، وبين له طريقة كتابة الحواشي والفوائد والتنبيهات المهمة ورسم له راموزا لكل حالة، وانتقل بعد ذلك إلى إجازة استعمال الحبر الأحمر لبيان كتابة الأبواب والتراجم

والفصول. وانهى ابن جماعة الباب بضبط تاريخ الكتابة مقيدا
بالمجلس.

وهكذا يعطينا ابن جماعة نموذجا لما كانت عليه الحال في
توجيه طالب العلم إلى خدمة الكتاب والعناية به، وتلقيه طرائق
نسخه والانتفاع به.



الفتح الاسلامي وأثره في الثقافة

توفى رسول الله صلى عليه وسلم ولم يكن الاسلام قد تعدى نفوذه جزيرة العرب اللهم الا مجرد توجيه الدعوة للأمم المجاورة^(١)، ثم بدأ الفتح الاسلامي بعد ذلك فأظل الاسلام ممالك ودولا كبيرة دخلها الاسلام بنوره قبل أن يدخلها جند المسلمين . ففي سنة ١٧هـ فتحت الشام وكانت قد تداولتها مدنيات مختلفة، وفي سنة ٢٠هـ فتحت مصر الوراثة لحضارة قدماء المصريين ولحضارة اليونان والرومان، وفي سنة ٢١هـ فتحت العراق ثم توالى الفتح إثر الفتح، فتحت فارس وغيرها، وامتدت الفتوحات حتى أخضع المسلمون لسلطانهم السند وبخارى وسمرقند كما فتحوا من الناحية الأخرى بلاد المغرب وكل شمال أفريقيا، وفي سنة ٩٣هـ فتحت الأندلس في غرب أوروبا، وتوغل المسلمون بعد ذلك في فرنسا حتى نهر اللوار، واستولوا على جنوب ايطاليا وجميع الجزر الواقعة في غرب البحر المتوسط^(٢).

(١) أرسل الرسول في السنة السادسة للهجرة الكتب إلى الملوك والأمراء، فبعث دحية بن خليفة الكلبي إلى هرقل امبراطور الروم، وعبدالله بن حذافة السهمي إلى كسرى فارس، وعمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي، وحاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس، وسليط بن عمرو العامري إلى هودة بن علي الحنفي أمير بلاد النمامة، وشجاع بن وهب إلى الحارث بن أبي شمر الغساني والعلاء بن الحضرمي إلى المنذر ابن ساوى أخى بنى قيس صاحب البحرين. وعمرو بن العاص إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى حكام عمان (ابن هشام ٤/ ٢٧٩، الطبري ٢/ ٨٤-٨٥).

(٢) توماس أرنولد: الدعوة إلى الاسلام، ترجمة حسن ابراهيم حسن وعبدالمجيد عابدين القاهرة ١٩٤٧، ص ١٣٥.

ودخل الناس في دين الله أفواجا من مختلف الأجناس والألسنة والألوان، ولم يكونوا يعتنقون الاسلام طوعية فحسب، ولكنهم كانوا يهبون لنشره والدفاع عنه بأموالهم وأنفسهم.

ولا ريب أن الاسلام يحمل بين جنبه العوامل الأصلية التي يرجع اليها السبب الرئيسي في نشر رسالته بهذه السرعة وهذا الشمول. هذه السرعة التي تخطت الدهناء والجبال والجزون والسهول والصحارى والمستنقعات، وهذا الشمول الذي لم يفرق بين الأسود والأبيض، والبدوي والمتحضر، ولم يميز بين الشريف والوضيع، والقوى والضعيف. يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ «سورة الحجرات: الآية ١٣»، وقد احتوت مبادئ الاسلام ونظم الحكم فيه من عناصر الحق والخير ماتطلبه البشرية على اختلاف مشاربها وأساليبها في الحياة، ولأن الحضارات التي نشأت في ظله فاحتضنها وصانها، وعناصر الحضارات التي اقتبسها من الحضارات السابقة فاستخدمها ونماها بعد أن طبعها بطابعه، لا بد أن كانت محققة لكل ماتصبو إليه الأمم والشعوب من أساليب القوة والحياة الطيبة الآمنة.

فالمسلمون الأولون الذين حسن اسلامهم وقوى إيمانهم وتطهرت نفوسهم من كل دنس وإثم كانوا يغزون بفضائلهم نقائص أعدائهم، وكان أثر مكارم أخلاقهم أمضى وأقوى أثرا من الحديد والنار.

يقول جوستاف لوبون: «إن القوة لم تكن عاملا في انتشار

القرآن، فقد ترك العرب الفاتحون أهل البلاد التي فتحوها أحرارا في أديانهم فإذا حدث أن اعتنق بعض النصارى الاسلام وأخذوا العربية لغة لهم فذلك لما رأوه من عدالة الفاتحين ولما لمسوه في الاسلام من سهولة ويسر لم يعرفوهما من قبل، ولم ينتشر الاسلام بالسيف، وانما انتشر بالدعوة وحدها^(١).

يقول الكونت دى كاسترى في كتابه «الاسلام خواطر وسوانح» «إن الاسلام لم يكن له دعاة مخصصون للقيام بالدعوة اليه، تقديم مبادئه كما في المسيحية، ولو أنه كان للاسلام أناس قوامون لسهل علينا معرفة السبب في انتشاره السريع فقد شاهدنا الملك شارلمان يستصحب معه على الدوام في حروبه ركبا من القسس والرهبان ليباشروا فتح الضمائر والقلوب بعد أن يكون هو قد فتح المدن والأقاليم بجيوشه التي كان يصلى بها الأمم حربا لا هوادة فيها، ولكننا لا نعلم للاسلام مجمعا دينيا يتبع الجيوش فلم يكره أحدا عليه لا بالسيف ولا باللسان».

وعن انتشار الاسلام بالدعوة في افريقية يتحدث الكاتب النصراني «هوبيرديشان» في كتابه «الديانات في افريقية السوداء» يقول: «إن انتشار دعوة الاسلام بأفريقية لم تقم على القسر وإنما قامت على الاقناع الذى كان يقوم به دعاة متفرون، لا يملكون حولا ولا طولا ولا قوة إيمانهم العميق بدينهم، وكثيرا ما انتشر الاسلام بالتسرب السلمى البطيء من قوم إلى قوم، كان اذا ما اعتنقته الاستقرائية، وهي هدف الدعاة الأول، تبتعتها بقية القبيلة، وقد يسر

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب ٣٢٥..

انتشار الاسلام أمر آخر وهو أنه دين فطرة بطبيعته سهل التناول، لا لبس فيه ولا تعقيد في مبادئه، سهل التكيف والتطبيق في مختلف الظروف، ووسائل الانتساب اليه يسيرة وأيسر، إذ لا يطلب من الشخص لإعلان اسلامه سوى النطق بالشهادتين حتى يصبح في عداد المسلمين، وقد حُبب الاسلام الى الأفريقيين مظاهره الجميلة البعيدة عن التكلف، مثل الثواب الواسع والمسبحة، والكتابة العربية، والوقار الديني وشعائر الصلاة، مما يضيف على المسلم مكانة مرموقة، وجاذبية ساحرة، فالذى يدخل الاسلام يشعر بأنه أصبح ذا شخصية محترمة، وأنه قد ازداد من القوة والحيوية» .

إن الموقف الأساسي للإسلام من أهل الأديان الأخرى مقرر واضح في آية صريحة من القرآن الكريم تقول: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ «سورة آل عمران: الآية ٦٤» .

وقد اتخذ الرسول هذه الآية شعاراً لموقفه من أهل الكتاب، فضمنها كتابه إلى النجاشي عظيم الحبشة، وإلى هرقل عظيم الروم، وغيرهما من رؤساء الأمم المجاورة.

هذه هي الدعوة التي أمر رسول الاسلام أن يوجهها إلى أهل الأديان الأخرى، فإن هم لم يستمعوا إليها فلهم شأنهم وله شأنه، ولهم دينهم وله دينه، والذي يتبع كتب الرسول إلى رؤساء الأمم من حوله يلمس فيها طابع الدعوة بالحسنى والنصح في رفق، فلما أخذت العلاقات السياسية تتشابه وتتعدد بين الدولة الإسلامية

والجماعات والدول المجاورة لها، والتي انتظمتها رايتها، أدخل الاسلام في تنظيم هذه العلاقات عنصرا جديدا هو طلب (الجزية) من الجماعة أو الأمة المجاورة أو المفتوحة، اذا لم يستجيبوا للاسلام وأرادوا البقاء على دينهم^(١).

وعلى هذا سار خلفاء المسلمين في معاملتهم للأمم المفتوحة: فمن أثر من الرعايا أن يبقى على دينه وفروا له الحرية والأمن في نفسه وماله وأماكن عبادته، مادام يؤدي الضريبة التي فرضتها الدولة عليه لقاء هذا السلام الذي تهئته له، والرعاية التي ترعى بها مصالحه. ومن الأمثلة الواضحة في هذا الكتاب الذي كتبه الخليفة عمر بن الخطاب لأهل « ايلياء » بعد فتح بيت المقدس في السنة الخامسة عشرة من الهجرة وفيه يقول: « بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى به عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، وعلى أهل ايلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن... » إلى أن يقول: « وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا أعطوا الذي عليهم من الجزية »^(٢).

وكذلك فعل العرب المسلمون حين فتحوا مصر، فقد حسموا

(١) محمد حميد الله الحيدري آيادی : مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة القاهرة

١٩٤١، ص ٣٠، ٥٧، ٥٨، ٢٦٨، ٢٦٩.

(٢) الطبري: ج ٣، ص ٦٠٩.

النزاع الذى كان قائما بين مسيحي مصر ومسيحي بيزنطة على بعض التصورات الدينية، وهىأوا لكل فريق الحرية أن يدين بما شاء، ووكلوا إلى البطريق القبطى سياسة الطائفة وتدير أمورها واصلاح ماهدم من كنائسها في أيام المقوقس^(١).

ومما قرره الباحثون أن أكبر فرق بين الأمبراطورية الاسلامية وبين أوربا التي كانت كلها على النصرانية في العصور الوسطى وجود عدد كبير من أهل الديانات الأخرى في ديار الاسلام، وأن الحاجة إلى المعيشة المشتركة وما ينبغى أن يكون فيها من وفاق أوجدت من أول الأمر نوعا من التسامح، كان مظهره نشوء علم مقارنة الأديان، أى دراسة الملل والنحل على اختلافها، والاقبال على هذا العلم بشغف عظيم^(٢).

ولم يكن في التشريع الاسلامي مايغلق دون غير المسلمين أى باب من أبواب الأعمال، وكانت قدمهم راسخة في الصنائع التي تدر الربح الوافر، فكانوا صيارفة وتجارا وأصحاب ضياع وأطباء، ولم تكن الحكومة الاسلامية تتدخل في الشعائر الدينية لغير المسلمين، بل كان بعض الخلفاء يحضر مواكبهم وأعيادهم ويأمر بصيانتهم، أما في التقاضي فقد خلت الدول الاسلامية بين أهل الملل الأخرى وبين محاكمهم الخاصة بهم والتي كان الرؤساء الروحيون يقومون فيها مقام كبار القضاة، وكان أهل الذمة بحكم مانالوه من تسامح المسلمين ودخولهم في ذمتهم وحمايتهم يدفعون الجزية كل واحد

(١) ساويرس بن المقفع، سير الآباء البطارقة ٥ / ٦ / ٢٤.

(٢) آدم ممتز: الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد علي أبوريدة- القاهرة ١٩٤٠، ج١، ص ٥٥، ٩٦.

بحسب قدرته، ويشبه بعض المؤلفين الغربيين هذه الجزية بضريبة الدفاع الوطني اذ لم يكن يدفعها الا الرجل القادر على حمل السلاح، وكان يعفى منها ذوو العاهات والمترهبون وأهل الصوامع الا اذا كان لهم يسار، ولم يكن المسلمون بدعا في هذا، فقد كان الروم يأخذون من اليهودي والمجوسي دينارا في السنة، وكذلك فرض النصارى على المسلمين نوعا من الجزية لما احتلوا بعض بلادهم^(١).

فاذا انتقلنا من شرق البلاد الاسلامية ووسطها إلى غربها وجدنا منهج الحكم الاسلامي واحدا لا يتغير ووجدنا التسامح الديني أساسا من أسس ذلك الحكم. يقول الكونت هنرى دكاسترى في كتاب «الاسلام»: «إن الحبرميشون قال: ولقد أيقنت من تتبعي للتاريخ، أنَّ معاملة المسلمين للمسيحيين تدل على ترفع في المعاشرة عن الغلظة، وتدل على حسن مسايرة، ولطف ومجاملة، وهو احساس لم يشاهد في غير المسلمين، اذ ذاك، خصوصا أن الشفقة، والرحمة، والحنان كانت امارات ضعف عند الأوروبيين وهذه حقيقة لا أدرى وجها للطعن فيها».

ويقول ستانلى لين بول: (ثم أخذ الناس بعد قليل يشعرون بأنهم

(١) آدم ميتز الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ترجمة محمد على ابوريده، القاهرة ١٩٤٠، ج١، ص ٧٤، ٧٥. ومما يؤيد أن الجزية فرضت على أهل الذمة مقابل حماية أرواحهم حيث إن دياتهم كانت تحول دون استخدامهم في جيوش المسلمين، مايرى عن أهل الحيرة أنهم قالوا في صراحة أنهم دفعوا الجزية مقابل «أن يمنعوننا وأميرهم البيغي من المسلمين وغيرهم، كذلك سجل خالد ابن الوليد في المعاهدة التي أبرمها مع بعض أهالى المدن المجاورة للحيرة مانصه: «فإن منعناكم فلنا الجزية والا فلا» وكانت أية جماعة مسيحية تقاتل إلى جانب المسلمين تعفى من الجزية، مثلما حدث مع الجراجمة بجوار أنطاكية (البلاذرى: فتوح البلدان ص ١١٥٩. ليدن ١٨٦٦).

أفادوا من تغير الحكم، فقد كان للأسبانيين أن يحتفظوا بشرائعهم وقضاتهم وعين لهم حكام من أنفسهم يديرون المقاطعات ويجمعون الضرائب ويفصلون فيما شجر بينهم من خلاف، وأصبح سكان المدن لا يكلفون الا الجزية- والخراج إن كانت لهم أرض تزرع- بعد أن كانوا في عهد القوط يحملون وحدهم عبء الضرائب والأموال التي تنفق على الدولة وقصرت الجزية على المخالفين في الدين، أما ضريبة الأرض فإنها فرضت بعدل ومساواة على النصرى، واليهود، والمسلمين جميعا، ولم يدع التسامح الديني للأسبانيين سببا للشكوى فقد تركهم العرب يعبدون كما يشاؤون من غير أن يضطهدوهم أو يلزموهم اعتناق عقيدة خاصة كما كان يفعل القوط باليهود. وكان من أثر هذه المعاملة وذلك التسامح أن رضى المسيحيون بالنظام الجديد، واعترفوا في صراحة أنهم يؤثرون حكم العرب على حكم الأفرنج أو القوط^(١).

لقد كان العرب يمتزجون بغيرهم من أهل البلاد المفتوحة فأدى ذلك إلى اختلاط العناصر المختلفة وتلاقي الأفكار وتبادل الثقافات. وقد دفع الاسلام أبنائه دفعا قويا إلى نشر الثقافة الاسلامية والتعرف على الثقافات الأخرى ودراستها ومقارنتها بما عندهم والاستفادة بكل مافيه من خير؛ والتقدم الحضارى ميراث للانسانية كلها، لا يمكن احتكاره لشعب دون شعب، وهو اذ ينتقل عبر الحدود فإنما ذلك بأخذ ذاتية البيئة التي حل فيها.

يقول جوستاف لوبون: «ومن العوامل الفعالة في أصول المدنية

(١) ستانلى لين بول: قصة العرب في أسبانيا ترجمة على الجارم. القاهرة ١٩٤٤، ص ١٣٦.

التي وضع العرب أساسها . شدة ماكانوا عليه من الذكاء، فإنهم ماكانوا يخرجون من صحارى بلادهم، حتى اتصلوا بالمدينة اليونانية واللاتينية فاستغربوا شأنها، ثم مالبثوا أن راضوها على أسلوبهم وطريقتهم .

تحمس العرب لدراسة العلم الجديد الذى خرجوا اليه، بنفس الحماسة التي اندفعوا بها فاتحين ولم تعقهم اثقال عادات وأوضاع قديمة، فإن الحرية في البحث كانت أحد العوامل التي أسرعت بانطلاقهم في طريق الرقي . ولم يمض زمن قصير حتى طبعوا الهندسة والفنون والعلوم بطابعهم الشخصي الذى تعرف به آثارهم لأول وهلة^(١) .

شجع الخلفاء العلماء والباحثين وقربوهم منهم وجعلوهم محل ثقتهم وتقديرهم وكلفوا لهم حرية مطلقة في البحث ورصدوا لهم المكافآت المجزية التي تصرفهم عن التفكير في غير ما هم بصدده من بحث وفحص ودراسة .

وحرص المسلمون على أن تكون جميع تصرفاتهم مسيطرة لأحكام الشرع فكان لزاما عليهم أن يدرسوا كل ماحولهم وأن يتفهموا كل مايدور في أوطانهم من أمور وأن يتعرفوا على كل مايقفون عليه من نظريات ليروا موقف الاسلام منها وليتعلموها ويستفيدوا منها وينشروها مادامت نافعة مفيدة كما تقضى بذلك تعاليم دينهم .

وكان من أثر ذلك أن تكونت للعرب ثقافات أفادت العالم

(١) جوستاف لوبون : حضارة العرب، ص ٣٥٨ .

أجمع، وتهافت الناس على التعرف عليها والاستفادة منها، كما كان لذلك أثر في انتشار اللغة العربية واقبال الناس على تعلمها حتى تمكنت دولة العرب في الأندلس من إيجاد فكر جديد صالح مهذب في أوربا هو فكر الثقافة العالمية التي نقلها المسلمون إلى الغرب، وأصبح المثل الأعلى للأوروبي أن يتشبه بالعرب المسلمين في أنماط التفكير وأساليب المعيشة بل وفي لغة اللسان حتى إنه لم يكن مثقفا ولا متحضرا في رأيهم من لا يحسن اللغة العربية ومن لا يدرس الثقافة الإسلامية. وقد نقل المؤرخ «دوزى» في كتابه عن «الاسلام في الأندلس» رسالة لكاتب أسباني في عصرها الاسلامي ينعى فيها اللغة اللاتينية واللغة الاغريقية نتيجة اقبال قومه على اللغة العربية والثقافات الاسلامية وهجرهم لما عداها، ومنها قوله: «إن أرباب الفطنة والتذوق سحرهم رنين الأدب العربي فاحتقروا اللاتينية وانصرفوا إلى العربية، فدرسوا التصانيف التي كتبها الفلاسفة والفقهاء المسلمون، وأنهم ليلتهمون كتب العرب ويجمعون منها المكتبات بأغلى الأثمان.

ويقول جورج سارطون في كتابه «العلوم والعمران في العصور الوسطى»: «أصبحت اللغة العربية في النصف الثاني من القرن الثامن للميلاد لغة العلم عند الخواص في العالم المتمدن، وحملت لواء التقدم الصحيح وحافظت على تفوقها واحتلالها مركز الصدارة بين جميع الألسن الأخرى إلى آخر القرن الحادى عشر على أقل تقدير. وكان كل من يريد أن يطلع في القرن الحادى عشر على أفكار عصره يضطر إلى أن يتعلم اللغة العربية.

أصبحت اللغة العربية لغة عالمية للعلم والمعرفة وذلك قبل عدة قرون من محاولة الباحثين ايجاد لغة عالمية مشتركة للعلم، وحتى لا تهتز المفاهيم العلمية بسبب تعدد اللغات الحديثة^(١).

يقول العالم الانجليزي روجر بيكون (١٢١٥-١٢٩٢م): إن الفلسفة مستمدة من العربية، وعلى هذا لا يستطيع الانسان الأوربي أن يفهم فلسفة العلم الا اذا عرف اللغة التي نقلت عنها «بل يقال إن بعض تلاميذ روجر بيكون نفسه كانوا أحيانا يتهكمون عليه اذا أخطأ في ترجمة النصوص العربية اللاتينية، مما يشير الي أنهم كانوا يعرفون العربية ويطالعون النص العربي ويقارنون بينه وبين مايقوله أستاذهم. وفي ذلك يقول بريفولت: «إن روجر بيكون درس اللغة العربية والعلوم العربية في جامعة أكسفورد على أيدي أساتذة تتلمذوا بدورهم على أيدي أساتذة من العرب الأندلس. وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم اللغة العربية وعلم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة»^(٢).

وهكذا استطاعت اللغة العربية أن تنتصر في جميع البلاد التي فتحها العرب من المحيط إلى الخليج - باستثناء القليل - فحلت محل اليونانية واللاتينية والقبطية والآرامية والسريانية والبربرية وغيرها. حتى

(١) من ذلك ما فكر فيه ليبنتز في القرن الثامن عشر من جمع «ألف باء» الفكر الانساني وحصر الأفكار البسيطة والمركبة، ثم وضع رمزاً لكل فكرة لتصبح هذه الرموز بمثابة لغة مشتركة. وفي القرن التاسع عشر شرع طبيب روسي في وضع لغة الاسبرنتو لتكون لغة عالمية، وفي أوائل القرن العشرين حاول الفيلسوف والرياضي الفرنسي «كروتوا» تهذيب الاسبرنتو وتحويلها إلى «الايدو» لتكون الأخيرة لغة دولية لها مقوماتها ونحوها، وقد أقرت الجمعية الفلسفية الفرنسية، هذا الاتجاه فأشارت إلى «الايدو» في معجمها الفلسفي الذي أخرجه لالاند.

(٢) Priffault: Making of Humanity P.P. 201-202

أن الشعوب التي احتفظت بلغتها- رغم خضوعها لحكم العرب واعتناقها الاسلام- مثل الفرس والترك- اتخذت اللغة العربية أداة للعلم والأدب، مثلما حدث في بلاد فارس .

ولم يكن عسيرا على لغة كاللغة العربية التي عرفت بالأصالة والخصب والغنى أن تصبح أداة لحضارة عظيمة، فقامت بمهمتها على خير وجه في التعبير عن الأفكار ونقلها، واستطاعت أن تكون أداة طيبة لكل مانقل من علوم الفرس والهنود واليونان، فلم يكد ينصرم القرن الثاني الهجري حتى كانت خلاصة هذه الثقافات قد دونت كلها باللغة العربية، والعرب الذين كانوا لا يعلمون شيئا من مصطلحات الحساب والهندسة والطب، ولا شيئا من منطق أرسطو وفلسفته، غدوا في قليل من الزمن يعبرون بالعربية عن أدق نظريات اقليدس وفلسفة أرسطو وطب جالينوس وفلك بطليموس^(١)

(١) أحمد أمين: ضحى الاسلام ج١، ص ٢٠٥ .

عناية علماء المسلمين بنشر الثقافة العالمية عن طريق الترجمة

اهتم المسلمون كل الاهتمام بالعلوم والمعارف في البلاد المفتوحة، وعنوا بالترجمة عناية فائقة، وأغدقوا على المشتغلين بها من الأموال ما جعلهم يؤدون الترجمة بعناية ودقة.

كان خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، أول من أمر بترجمة التراث اليوناني إلى اللغة العربية، إضافة إلى تعريب مانقل من اليونانية إلى القبطية ويعتبر بحق الرائد الأول في نقل العلوم إلى اللغة العربية وبذلك وفر العلم لمن أراد ارتشافه من العرب والمسلمين الذين يحسنون اللغة العربية^(١).

كانت الترجمة بادىء بدء ركيكة مشوشة، بل هي أقرب إلى الترجمة الحرفية منها إلى الترجمة الدقيقة ذلك لضعف المترجم في إحدى اللغتين اليونانية والسريانية من ناحية والعربية من ناحية ثانية ولم تستقم الترجمة إلا بعد النصف الأول من القرن الثاني للهجرة، أي بعد أن تولاهما حنين بن أسحق. فقد درس حنين اللغة العربية على تلامذة الخليل بن أحمد الفراهيدي وفي مدرسته في البصرة، فتضلّع في اللغة العربية وأجادها ثم سافر إلى بلاد الروم (اليونان) وأقام فيها مدة مكنته من اللغة اليونانية وهكذا تمكن من اللغتين، اللغة العربية التي يترجم إليها واللغة اليونانية التي ينقل عنها، لذلك جاءت ترجمته مضبوطة مفهومة وبلغة عربية رصينة فصيحة وإذا ما تذكرنا أنه كان يجيد السريانية بحكم تكوينه فيكون بذلك قد استوعب كل ما ينقل

(١) فاضل أحمد الطائي: أعلام العرب في الكيمياء ص ١٧.

إلى العربية من العلم اليوناني الذى بقى في لغته أو ما ترجم منه إلى اللغة السريانية. وحظى حنين بقسط وافر من رعاية الخلفاء العباسيين ولا سيما المأمون الذى كان يكافئه على ترجمته بالذهب كفة بكفة^(١).

شهد القرن الثاني الهجري حركة عقلية ضخمة أمدتها روافد كثيرة أولها الثقافة العربية الأصيلة التي تتمثل في الشعر والقرآن والحديث وفقههما وعلوم اللغة العربية، وقد أحرزت هذه الفروع جميعها تقدما كبيرا في هذا القرن، بل إن بعضها ابدع فيه ابداعاً جديدا كالنحو والعروض مثلا، كما جمع التراث الشعري القديم لأول مرة ودون في ذلك العصر.

وبدأ العرب بدراسة التراث اليوناني في مطلع هذا القرن، واستمرت الدراسة والترجمة أكثر من قرن، فاستوعب علماء العرب، ماجاءهم من التراث اليوناني علما وفلسفة واجتماعا، وأضافوا إلى ماجاءهم من العلم والمعرفة وبرز منهم عدد كبير في مختلف شؤون المعرفة كالفلسفة والفلك والطبيعة (الفيزياء) والرياضيات والهندسة والكيمياء، وقدم العرب تراثا جديدا وغزيرا فقد حافظوا على التراث اليوناني وكان هذا بعض فضلهم، غير أن فضلهم الكبير يتجلى فيما طوروا من أساليب البحث العلمي مثل اعتمادهم الطرق التجريبية في الوصول إلى الحقائق العلمية. هذه الطرق التي أغفلها اليونان واستبدلوا بها الاستنباط الفكري ولعل جابر بن حيان أول رائد في هذا الباب وحذا حذوه كل من الكندى وابن الهيثم وغيرهما.

(١) الاعلام: ج ٢ ص ٢٨٧ - ٢٨٨.

وقام علماء من الفرس بدور مهم في الترجمة، مثل يعقوب بن طارق، ومحمد بن ابراهيم الفزارى الذى كان أبوه فلکیا مشهورا وقد كتب منظومة في الفلك، ويقال إنه أول من صنع الاسطرلاب من المسلمين، ومن المترجمين من البهلوية إلى العربية عبدالله بن المقفع الذى ترجم بعض الكتب في المنطق والطب، ولكنه اشتهر على الأخص بترجمة كتاب خد اینامة أى سير ملوك العجم كما سماه، وكذلك كتاب کلیلة ودمنة، وقام ابنه محمد بدور كبير في نقل الكتب الفلسفية اليونانية.

ولكن لكتاب کلیلة ودمنة أثر كبير في الأدب العربي وغيره من الآداب، وتأثر به الكثيرون من الكتاب وحذوا حذوه في التأليف على منواله، وقد أدخل في العربية القصص على ألسنة الحيوانات ووضع الأمثال والحكم والعظة على ألسنتها.

وكان شیوع الثقافة الفارسية في عالمنا الاسلامي مرجعه أيضا إلى نشأة منصب الوزارة وإسناده في أكثر الأحوال إلى الفرس. وكان من مميزات الوزير أنه صاحب قلم عالم مطلع وكتاب بليغ يستعين بكتاب تميزهم كفاية علمية وسعة اطلاع والمأم بشتى العلوم والفنون، وساعد كل هذا على أن يترجم المسلمون إلى العربية تراث الحضارة الفارسية. وكان البرامكة بنفوذهم الواسع في الدولة العباسية من أهم العوامل في نشر الثقافة الفارسية، وإن كان من الحق أن يقال أنهم شجعوا نشر جميع الثقافات. يروى ابن النديم عند الكلام على كتاب المجسطی في الفلك أن أول من عني بتفسيره وإخراجه إلى العربية يحيى بن خالد بن برمك، ففسره له جماعة فلم يتقنوه، ولم

يرضه ذلك فندب لتفسيره أبا حسان وسلمان- صاحب بيت الحكمة- فأتقناه واجتهد في تصحيحه. فهؤلاء البرامكة وإن كانوا قد عنوا بالثقافة الفارسية فقد اهتموا معها بالثقافة اليونانية والهندية والعربية.

ومن أثر الثقافة الفارسية في اللغة العربية ألفاظ لا يعرفها العرب أصلاً لأنها تعبر عن معان جديدة أخذوها عن الفرس. ويبدو هذا في أدوات الزينة وأنواع المأكّل والملبس وآلات الغناء ونظام الدواوين وغيرها، كما تسربت إلى العربية ألفاظ فارسية عن طريق الاختلاط أو التجارة ولكنها قليلة إذا قيست بالألفاظ التي ترجمها العرب إلى لغتهم بسبب احتياجهم إليها.

كان المسلمون يقولون إن الأمم ذات الصفات الممتازة أربع: هي الفرس والهند والروم والصين. ويقول الجاحظ: إن الهنود اشتهروا بالحساب وعلم النجوم وأسرار الطب والخرائط. والصناعات الكثيرة العجيبة. وردد هذا غيره من المؤرخين من أمثال القفطى والأصفهاني.

واتصل المسلمون بالهند وأخذوا عنها الرياضيات- قبل أن يتصلوا باليونان اتصالاً وثيقاً- وأمر المنصور بترجمة كتاب هندي في الفلك إلى العربية واستخراج كتاب منه يتخذة العرب أصلاً في حساب حركات الكواكب، وتولى ذلك الفزاري، وترجم العرب كتاباً ثانياً اسمه الأركند وثالثاً اسمه الأزجهره وكان هذا دليلاً على شدة تأثير كتب الهند في أوائل نمو الفلك عند العرب. وقد أفاد العرب من الهنود في حل جملة من المسائل الفلكية المتعلقة بعلم حساب المثلثات الكروية.

وأخذ العرب عن الهنود بعض الاصطلاحات الرياضية، كلفظة الجيب في حساب المثلثات، واقتبسوا كثيرا من نظريات الهنود في الحساب والهندسة.

وكان للهنود أدب وشعر، وقد نظموا قواعد للرياضة والفلك، لأن ذلك يخرجهم عن ضبط القواعد ودقة التعبير، وللشعر عندهم بحور وأوزان، ويقول البيروني: إن من الممكن أن يكون الخليل بن أحمد قد قلد الهنود في وضع موازين الأشعار.

وأولع العرب بالقصص الهندية. وقد أشرنا إلى كتاب كيلة ودمنة الذي ترجم إلى الفارسية ومنها إلى العربية، وقصة السندباد الهندية. ويذكر ابن النديم في الفهرست أسماء كتب هندية كثيرة ترجم منها إلى العربية.

أسس المأمون الخليفة العباسي بيت الحكمة في بغداد الذي زوده بمكتبة ومرصد فلكي، كما أمر فلكيه بعمل الزيجات لحركات الكواكب، وقياس درجتين أرضيتين لامكان تقدير حجم الأرض بصورة أدق من ذي قبل كما أمر برسم خريطة جغرافية كبيرة، ومن الراجح جدا أن يكون محمد بن موسى الخوارزمي العالم المشهور قد اشترك في قياس الدرجتين المذكورتين، كما شارك في رسم خريطة العالم، واشترك في قياس المساحات الأرضية والفلكية خالد ابن عبد الملك المروزي، وسند بن علي، وعلي بن عيسى الاسطرلابي، ويحيى بن أبي منصور- الذي كان قائما على المرصد الذي أسسه المأمون- وغيرهم. وقد قامت هذه الجماعة من العلماء بعملها في الشماسية ببغداد، وجبل قاسيون بدمشق وذلك في

سنوات ١٥ و ١٦ و ٢١٧ هـ.

ومن الذين قاموا بجهد في الترجمة أيام المأمون يحيى بن ماسوية الذى كان يشرف على بيت الحكمة في بغداد، وكان يؤلف بالسريانية والعربية، كما كان متمكنا من اليونانية، يقول « أوليرى » ان كتابه الطبي عن الحميات اشتهر زمنا طويلا، وترجم فيما بعد إلى اللاتينية والعبرية^(١).

لقد ازدهرت الحركة العلمية ترجمة وتأليفا أيام المأمون، وفي عهده استهل أبو يوسف يعقوب الكندى فيلسوف العرب نشاطه الفكري. ويقول « بروكلمان » عنه إنه لم يقتصر على تعريف مواطنيه بفلسفة أرسطو وأفلاطون عن طريق الترجمة والاقتباس فحسب، بل عدا ذلك الى توسيع آفاقهم العقلية بما أخرج من الدراسات في التاريخ الطبيعي وعلم الظواهر الجوية مكتوبة بروح تلك الفلسفة.

ولم يكن نشاط المأمون العلمي مقتصرًا على شراء الكتب والتشجيع على التأليف والترجمة، بل كان يسعى إلى احضار العلماء الأجانب للاستفادة بعلمهم وخبرتهم^(٢).

وكان لتمسك العرب بلغتهم في عهد العباسيين أن ظهر في القرن الثالث والرابع والخامس من الهجرة كُتُبا تركوا لنا ذخيرة في العلوم والآداب والفنون تشهد بسمو اللغة العربية، وأنها اتسعت لجميع ألوان الحضارة ويرجع الفضل في ذلك إلى أن العربية تحوى كثيرا من المترادفات والألفاظ المعبرة عن خواطر النفس البشرية، ولما

(١) ديلاسى أوليرى: الفكر العربى ومكانه في التاريخ ترجمة د. تمام حسان ص ١٢٧.

(٢) محمد مصطفى هداره: المأمون الخليفة العالم ص ١١٦.

احتاج العرب إلى نقل العلوم الطبيعية والرياضية، عربوا المصطلحات وأدمجوها في قاموس اللغة مما يثبت بالبرهان القاطع على أنها لغة حية ولغة حضارة^(١).

والاسلام له ثقافته الخاصة به ونظرياته العلمية التي أشار إليها القرآن وجاء بها أو وجه النظر إليها.

والاعجاز العلمي في القرآن ليس بالأمر الخفي، فالتقدم العلمي يبين لنا الحقائق العلمية التي أشار إليها القرآن. يقول الله تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾ «سورة ص، الآية ٢٩».

وقد أتى من الناحية التشريعية بقواعد حضارة تشريعية عريقة أصيلة مرنة لتصلح للتطبيق في كل بيئة وعصر، وأن أحدث النظريات القانونية والاقتصادية والاجتماعية في العالم يوجد لها أصول في التشريع الاسلامي.

يبلغ عدد الآيات العلمية في القرآن ما يقرب من السبعمائة والخمسين آية تشتمل على مختلف العلوم، ويمكن القول بأنه ما من علم من العلوم الا وقد أشار اليه القرآن. وقال فيه ما يحقق له الاعجاز ويعلو به فوق طاقات البشر^(٢).

قال الله تعالى: ﴿فلينظر الانسان مم خلق. خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب﴾ «سورة الطارق: الآيات ٥-٨». الصلب: هو منطقة العمود الفقري، والترائب: هي عظام الصدر.

(١) أحمد فؤاد الأهواني: القومية العربية، ص ٤٧.

(٢) انظر الاكليل في استنباط التنزيل للإمام السيوطي - مصححه.

وقد بينت الدراسات الحديثة أن نواة الجهاز التناسلي والجهاز البولي في الجنين تظهر بين الخلايا الغضروفية المكونة لعظام العمود الفقري بين الخلايا المكونة لعظام الصدر-وتبقى الكلى في مكانها وتنزل الخصية الى مكانها الطبيعي في الصفن عند الولادة، وعلى الرغم من انحدار الخصية إلى أسفل فإن الشريان الذى يغذيها بالدم طول حياتها، يتفرع من الأورطة بحذاء الشريان الكلوى، كما أن العصب الذى ينقل الاحساس اليها ويساعدها على انتاج الحيوانات المنوية ومايصاحب ذلك من سوائل متفرع من العصب الصدري العاشر الذى يغادر النخاع الشوكي من الضلعين العاشر والحادى عشر.

واضح من ذلك أن الأعضاء التناسلية وما يغذيها من أعصاب وأوعية دموية تنشأ من موضع في الجسم بين الصلب والترائب (العمود الفقري والقفص الصدري^(١)).

ويقول جل شأنه: ﴿يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظِلْمَاتٍ ثَلَاثَ﴾ «سورة الزمر: الآية ٦» يقرر علم الأجنة فى العصر الحديث أن الجنين بعد نموه يكون محاطا بثلاثة أغشية صماء لا ينفذ منها الماء ولا الضوء ولا الحرارة.

يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ. وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًّا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سَبِيلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ. وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا

(١) المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية: المنتخب في تفسير القرآن الكريم. القاهرة ١٣٨٧هـ، ص ٨٩٨.

معروضون. وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون ﴿ سورة الأنبياء: الآيات ٣٠ - ٣٣ ﴾ .

هذه الآيات البينات تتصل بمولد الكون وتمدده واتساعه المستمر، وبكيفية خلق السموات، الأرض وأنها كانت جميعا في يوم من أيامه سبحانه وتعالى أصلا واحدا كالدخان (السديم) في حالة الرق والارتق والاتصال ثم أوحى إليها سبحانه وتعالى، في يوم من أيامه بالفتق والانفصال، فكان الفتق ثم الرق يومين من أيامه، مر بهما كونه، سماؤه وأرضه، على ما شاء وقدر.

وقد أثبت علم الخلية أن الماء هو المكون الهام في تركيب مادة الخلية، وهي وحدة البناء في كل كائن حي نباتا كان أم حيوانا. وأثبت علم الكيمياء الحيوية أن الماء لازم لحدوث جميع التفاعلات والتحوللات التي تتم داخل أجسام الأحياء - فهو اما وسط أو عامل مساعد أو داخل في التفاعل أو ناتج عنه. وأثبت علم وظائف الأعضاء أن الماء ضروري لقيام كل عضو بوظائفه التي بدونها لا تتوفر له مظاهر الحياة ومقوماتها.

وقال تعالى: ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ﴾ «سورة الحديد: الآية ٢٥» وليس أدل على ذلك من امتياز الحديد وسبائكه المتنوعة بخواص متعددة ومتفاوتة الدرجات في مقاومة الحرارة والشد والصدأ والبلى، ولذلك كان أنسب الفلزات لصناعة أسلحة الحروب وأدواتها وأساسا لجميع الصناعات الثقيلة والخفيفة ودعامة للحضارات.

وللحديد منافع جمة للكائنات الحية اذ تدخل مركبات الحديد

في عملية تكوين الكلوروفيل وهو المادة الأساسية في عمليات التمثيل الضوئي التي ينشأ عنها تنفس النباتات وتكوين البروتوبلازم الحي، وعن طريقه يدخل الحديد جسم الانسان والحيوان. ويوجد الحديد في الكبد والطحال والكلى والعضلات والنخاع الأحمر ويحتاج الجسم إلى كمية من الحديد يجب أن يزود بها من مصادره المختلفة فإذا نقصت تعرض الانسان لعدة أمراض أهمها فقر الدم^(١).

وانظر غير ذلك من الآيات النفسية والآيات الكونية الكثير التي حوت علوم الطبيعة والفلك والجيولوجيا وعلوم النبات والحيوان وعلم الطب والوراثة والتاريخ والجغرافيا وعلم النفس وما إلى ذلك مما يشعر الباحث المطلع أن القرآن سبق العلم في كافة اتجاهاته، وسيظل كذلك مابقيت الحياة، يقول الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ سورة فصلت: الآية ٥٣.

وقد صدرت ترجمات لتفسير القرآن من زمن بعيد إلى لغات مختلفة وخاصة لغات البلاد المتحضرة، وتعرف علماء هذه البلاد عن طريق هذه الترجمات على مافي القرآن من علوم ومعارف ونظريات دقيقة، ولعل ذلك كان مرشدا لهم في بعض بحوثهم وموجهها إلى التطلع والنظر في بعض النواحي للتعرف على حقيقتها^(٢).

(١) المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية: المنتخب في تفسير القرآن الكريم. القاهرة ١٣٨٧هـ، ص ٨٠٨.

(٢) طبع القس الجزويني «ماراتشي Maracci ترجمة للقرآن عام ١٦٩٨م وأعيد طبعها عام ١٧٢١م بمدينة ليبزج الألمانية، كما قام المستشرق العلامة مرجرلين Mergerlin عام ١٧٧٢م بترجمة القرآن وقد عكف الشاعر الألماني «جوته» على تلاوة القرآن في هذه الترجمات ويظهر في شعر جوته الأخير الذي أسماه «الديوان الشرقي للمؤلف الغربي» تأثره بالقرآن في روحه وعباراته (عبدالرحمن صدقي: الشرق والاسلام في أدب جوته. ص ١٤-١٨).

اهتم المسلمون في عصورهم الزاهية بالعلم والثقافة، ولم ينسهم النصر هذه الناحية، بل حفظوا للعالم عن طريق ترجمة الثقافات الأجنبية إلى العربية الكثير من هذه الثقافات التي كان مصيرها الضياع لولا هذه التراجم العربية، والتي لم يعرفها العالم الحديث الا عن طريق الكتب العربية، وذلك مثل الكتب الخاصة بالتشريح وكتب القوى المحركة والرياضيات والأجسام الطافية لأرشميدس، والبصريات لبطليموس، ولو لا اخلاص المسلمين وحرصهم على الثقافة ونشرها بتحريض من دينهم لظلت الثقافات القديمة دفيئة ميتة، كما برع المسلمون في كثير من المجالات وكانت لهم فيها ثقافتهم الخاصة التي دفعهم اليها ماجاء في كتابهم الكريم من الاشارة اليها والتوجيه إلى النظر فيها، البحث بشأنها مثل علم الفلك وعلم الكيمياء وعلم الطب والتشريح والجراحة والتداوي، وماتبع ذلك من ايجادهم لعلم الجبر والأعداد الحسابية وغير ذلك من اختراع الساعات ونحوها من الآلات مما تشير إلى أثرهم فيه بعد أن بينا أثرهم في الحفاظ على الثقافات الأخرى عن طريق ترجمتها والعناية بها .

الفصل الثاني

– الثقافات الإسلامية وأثرها في الحضارة:

- ١– في الأدب .
- ٢– في الفلسفة .
- ٣– في الطب .
- ٤– في الصيدلة .
- ٥– في الكيمياء .
- ٦– في الطبيعيات .
- ٧– في الفلك .
- ٨– في الرياضيات .
- ٩– في علم النبات .
- ١٠– في علم الحيوان .
- ١١– في علوم البحار .
- ١٢– في الجغرافيا .
- ١٣– في علم الاجتماع .
- ١٤– في الاختراعات .
- ١٥– في الفنون والمعارف الصناعية .

الثقافة الإسلامية وأثرها في الحضارة

كانت أوروبا تتلقى آثار الثقافة العربية الإسلامية بوسائل وطرق كثيرة ومن أهمها وأعظمها أثرا:

١- طريق الأندلس، حيث أقام العرب هناك جامعات زاهرة قصدها طلاب العلم من أوروبا، ونشر هؤلاء الطلاب في بلادهم ماتعلموه من العرب، كما انتفع الأوروبيون بدور الكتب الكثيرة التي كانت منتشرة في أسبانيا، مما ساعد على احياء العلوم في أوروبا فيما بعد .

٢- طريق صقلية، حيث ظل المسلمون في هذه البلاد زهاء ١٣٠ سنة، فأصبحت المركز الثاني لنشر الثقافة الاسلامية في أوروبا .

٣- طريق الشرق، فقد كانت الحروب الصليبية (١٠٩٩-١٢٩١م) والحج إلى بيت المقدس مدعاة لاختلاط الأوروبيين بالعرب فنقلوا عنهم الكثير من علومهم ومعارفهم وفنونهم وصناعاتهم، كما حصلوا على كثير من الكتب العربية، فساعد ذلك على ظهور روح البحث، ودراسة علوم الأقدمين وآدابهم وفنونهم .

وقد أكد علماء الغرب المنصفون أن الأوروبيين تناولوا مشعل العلم من أيدي المسلمين حين اتصلوا بهم واطلعوا على حضارتهم، فاستضاءوا بعد ظلمة، وبلغوا به بعد ذلك مابلغوه من هذا التقدم العلمى العظيم الذى يعيشون فيه اليوم، ولو لا هذا الاطلاع وهذا الاحتكاك لظلت أوروبا، ربما لقرون عديدة أخرى تعيش في الظلام والجهالة التي رانت عليها في العصور الوسطى . وقد أجمل المؤرخ

الفرنسي جوستاف لوبون في كتابه « حضارة العرب »^(١) « تأثير حضارة الاسلام في الغرب وأرجع فضل حضارة أوروبا الغربية اليها وقال «إن تأثير هذه الحضارة بتعاليمها العلمية والأدبية والأخلاقية عظيم» ولا يتأتى للمرء معرفة التأثير العظيم الذى أثره العرب في الغرب الا اذا تصور حالة أوروبا في الزمن الذى دخلت فيه الحضارة. وأضاف لوبون : بأن عهد الجهالة قد طال في أوروبا العصور الوسطى وأن بعض العقول المستنيرة فيها لما شعرت بالحاجة إلى نفث الجهالة عنها، طرقت أبواب العرب يستهدونهم ما يحتاجون اليه لأنهم كانوا وحدهم سادة العلم في ذلك العهد .

ويقرر لوبون أن العلم دخل أوروبا بواسطة الأندلس وصقلية وإيطاليا . وأنه في سنة ١٢٠م أنشئت مدرسة للترجمة في طليلة بالأندلس بعناية « ريمولة » رئيس الأساقفة، وأن هذه المدرسة أخذت تترجم إلى اللاتينية أشهر مؤلفات المسلمين، ولم يقتصر هذا النقل على كتب الرازى وابن سينا وابن رشد فحسب بل نقلت اليها كتب اليونان التي كان العرب قد نقلوها إلى لسانهم، ويضيف لوبون أن عدد ما ترجم من كتب العرب إلى اللاتينية يزيد على ثلثمائة كتاب ويؤكد لوبون فضل العرب على الغرب في حفظ تراث اليونان القديم بقوله : « فيالى العرب، وإلى العرب وحدهم، لا إلي رهبان القرون الوسطى ممن كانوا يجهلون حتى وجود اللغة اليونانية، يرجع الفضل في معرفة علوم الأقدمين، والعالم مدين لهم على وجه الدهر لانقاذهم هذا الكنز الثمين . وأن جامعات الغرب لم تعرف لها، مدة خمسة

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص ٢٦، ٥٦٨ .

قرون، موردا علميا سوى مؤلفاتهم وأنهم هم الذين مدنوا أوروبا مادة وعقلا، وأخلاقا، وأن التاريخ لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير، وأنه لم يفوقهم قوم في الابداع الفني .

وأكد لوبيون أثر الاسلام وأثر حضارته في كل بلد استطلت برايته قائلا: كان تأثير العرب في عامة الأقطار التي فتحوها عظيما جدا في الحضارة، ولعل فرنسا كانت أقل حظا في ذلك، فقد رأينا البلاد تتبدل صورتها حينما خفق علم الرسول الذي أظلمها بأسرع مايمكن، ازدهرت فيها العلوم والفنون والآداب والصناعة والزراعة أي ازدهار . وأشاد لوبيون بفضل العرب في نشرالعلوم وفتح الجامعات في البلاد التي استطلت برايتهم فيقول : ولم يقتصر العرب على ترقية العلوم بما اكتشفوه، فالعرب قد نشروها، كذلك بما أقاموا من الجامعات وماألفوا من الكتب،فكان لهم الأثر البالغ في أوروبا من هذه الناحية، ولقد كان العرب أساتذة للأمم المسيحية عدة قرون، واننا لم نطلع على علوم القدماء والرومان الا بفضل العرب، وأن التعليم في جامعاتنا لم يستغن عما نقل إلى لغاتنا من مؤلفات العرب^(١) .

ويقول الفيلسوف الفرنسي « ارينيه جينو » الذي أسلم وتسمى عبد الواحد يحيى : « والأثر الواضح الذى يثبت لنا انتقال المؤثرات الثقافية من المسلمين إلى أوروبا هو تلك الكلمات العربية الأصل التي تستعمل لنقل الأفكار واطهار ماتكنه النفوس فإن من السهل علينا أن نستنتج انتقال تلك الأفكار والآراء الاسلامية نفسها، وفي الحق أن تأثير الحضارة الاسلامية قد تناول إلى درجة بعيدة وبشكل محسوس

(١) جوستاف لوبيون: حضارة العرب، ص٢٦، ٢٦٦، ٥٦٩ .

كل العلوم والفنون والفلسفة وغير ذلك، وقد كانت أسبانيا مركز الوسط الهام الذي انتشرت منه تلك الحضارة. فالكيمياء احتفظت دائما باسمها العربي وعلم الفلك أكثر اصطلاحاته الخاصة ماتزال محتفظة في كل اللغات الأوروبية بأصلها العربي، كما أن كثيرا من النجوم مايزال علماء الفلك في كل الأمم يطلقون عليها أسماء عربية. ومن السهل جدا أن نوضح أن كثيرا من المعارف الجغرافية عرفت من الرحالة العرب الذين جابوا كثيرا من الأقطار وحملوا معهم معلومات جمة. وأننا لنجد أثر الثقافة الاسلامية في الرياضيات أكثر وضوحا، وهذا علم الحيوان الذي يسهل علينا من اسمه العربي أن نعرف طريق انتقاله إلى الغرب، كما أن الأرقام الحسابية التي يستعملها الأوربيون هي نفس الأرقام التي استعملها العرب، وأن كثيرا من المعاني التي جادت بها قرائح الكتاب والشعراء المسلمين أخذت واستعملت في الأدب الغربي، كما نلاحظ أن أثر الثقافة الاسلامية واضح كل الوضوح وبصفة خاصة في فن البناء وذلك في العصور الوسطى.

ولم تكن هناك وسيلة لتعرف أوروبا الفلسفة اليونانية الا عن طريق الثقافة الاسلامية لأن التراجم اللاتينية لافلاطون وأرسطو لم تنقل أو تترجم من الأصل اليوناني مباشرة وإنما أخذت من التراجم العربية وأضيف إليها ماكتبه المعاصرون المسلمون مثل ابن رشد وابن سينا في الفلسفة الاسلامية.

ثم ينتهي رينيه جينو بقوله: هذا جزء من كل من أثر الثقافة الاسلامية في الغرب ولكن الغربيين لا يريدون أن يقولوا به لأنهم لا يريدون الاعتراف بفضل الشرق عليهم، ولكن الزمن كفيل باظهار

الحقائق^(١).

كان تأثير الثقافة الاسلامية على أوروبا تأثيرا عميقا في شتى نواحي الحياة وفيما يتصل بالمعارف والعلوم والفنون .

١- في الأدب :

قامت صلة وثيقة بين طائفة من عباقرة الشعر في أوروبا بأسرها، خلال القرن الرابع عشر الميلادي ومابعد، وموضوعات الأدب العربي والثقافة الاسلامية على وجه لا يقبل التشكيك . ونخص بالذكر من هؤلاء بوكاشيو وبتراكي ودانتى وهم من أعلام النهضة الايطالية، وشسر الكاتب الانجليزي الشهير، وسرفانيتس الأسباني، وإلى هؤلاء يرجع الأثر والتأثير البارز في قيام النهضة الأوربية في أوروبا .

ففي عام ١٣٤٦م كتب بوكاشيو حكاياته التي سماها « الليالى العشرة » وحذا فيها حذو ليالى ألف ليلة وليلة التي كانت منتشرة حكاياتها في مصر والشام، وقد ضمن حكاياته مائة حكاية على غرار ألف ليلة وليلة وأسندها إلى سبع من السيدات وثلاثة من الرجال الذين اعتزلوا في بعض ضواحي المدينة فرارا من مرض الطاعون . وفرضوا على كل منهم حكاية يقصها على أصحابه في كل صباح لقضاء وقت الفراغ وقتل الملل، وقد ملأت هذه الحكايات أقطار أوروبا واقتبس منها الكاتب الانجليزى « وليم شكسبير » موضوع مسرحية « العبرة بالخواتيم » كذلك اقتبس منها « ليسينج » الألماني مسرحية « ناتان الحكيم » . وكان شوسر إمام الشعر الحديث في اللغة

(١) الفيلسوف رينيه جينو أو عبدالواحد يحيى للدكتور عبدالحليم محمود، ص ٥٠-٦٠ .

الانجليزية من أكبر المقتبسين من بوكاشيو في زمانه، لأنه التقى به حين زار إيطاليا ونظم بعد ذلك قصصه المشهورة باسم « قصص كانتربرى ».

وكانت صلة دانتي^(١) بالثقافة الاسلامية وثيقة، لأنه أقام في صقلية في عهد الملك فردريك الثاني، الذي درس الثقافة الاسلامية في مصادرها العربية الأصيلة. وقد لاحظ أحد المستشرقين أن الشبه قريب جدا بين وصف الجنة في كلام الصوفي الكبير محي الدين بن عربي (١١٦٤ - ١٢٤٠م) في مؤلفه الكبير « الفتوحات المكية » وأوصاف دانتي لها في الكوميديا الالهية.

وقد كان دانتي يعرف شيئا غير قليل من سيرة الرسول ﷺ، فاطلع على الأرجح من هذا الباب على قصة الاسراء والمعراج ومراتب السماء، ولعله اطلع على رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، واقتبس من كل هذه المصادر معلوماته عن العالم الآخر التي أوردها في الكوميديا الالهية وأكبر القائلين بالافتباس على هذا النحو هو عالم من أمة الأسبان انقطع للدراسات العربية: وهو الاستاذ آسين بالسيوس^(٢) • Asin Palacios

وقد عاش بترارك في عصر الثقافة الاسلامية بايطاليا وفرنسا، ودرس العلم بجامعتي مونبلييه وباريس بفرنسا وكتاتهما قامتا على تلاميذ علماء المسلمين في الجامعات الأندلسية.

(١) هو دانتي البجيرى (١٢٦٥ - ١٣٢١م) وهو من مفاخر عصر النهضة، وهو صاحب الكوميديا الالهية، وقد قام بترجمتها إلى اللغة العربية الدكتور حسن عثمان.

(٢) انظر أيضا: عبدالرحمن بدوى: دور العرب في تكوين الفكر الأوربي. بيروت ١٩٦٥، ص ٦٣ - ٨٤.

أما سرفانتيس فقد عاش في الجزائر بضع سنوات وألف كتابه «دون كيشوت» بأسلوب لا يشك من يقرأه في اطلاع كاتبه على العبارات العربية والامثال التي لا تزال شائعة بين العرب حتى هذه الأيام . وقد جزم برسكوت PRESCOTT صاحب الاطلاع الواسع على تاريخ الأسبان بأن فكاهة «دون كيشوت» كلها أندلسية في اللباب .

أما عن الشعر، فقد قال دانتى إنَّ الشعر الايطالى ولد في صقلية بفضل الشعر العربى وبتأثير منه، ولقد شاع نظم الشعر بالعامية في اقليم بروفانس في جنوب فرنسا، وانتشر الشعر في ذلك الاقليم على يد الشعراء الجوالين الذين عرفوا باسم «التروبادور» وواضح أن الأوربيين اشتقوا هذا الاسم من كلمة طروب العربية. وقد وجدت في أشعار الأوربيين بشمال الأندلس كلمات عربية واشارات لعادات اسلامية .

والشعر العربى الأندلسى في الموشحات والزجل كان السبب في نشأة الشعر الأسباني نفسه، والمرجح أن أول من ابتكر الموشح هو مقدم بن معافى القبرى الضير ٩٩٢م وثلاثة آخرون أثروا هذا اللون من النظم «لسهولة تناوله وقرب طريقته» كما يقول ابن خلدون في مقدمته .

والزجل يكون عادة باللغة الدارجة بينما يكون الموشح بالعربية الفصحى . وهذان اللونان من النظم من ابتكار أهل الأندلس وهما اللذان أثرا في نشأة الشعر الأوربى، وقد أثبت الباحثون انتقال بحور الشعر الأندلسى والموسيقى العربية إلى أوروبا .

وامتد التأثير العربى في نشأة الشعر الأوربى إلى بعض الموضوعات كالمغامرات، وطريقة علاج هذه الموضوعات، كما

يتمثل هذا في فكرة الحب العذرى التي تسود الغزل في الشعر البروفنصالي، فانه يرتد إلى الشعر الأندلسي، وأزجال ابن قزمان، وقد عرض فكرة الحب العذرى، ابن حزم في كتابه « طوق الحمامة » .

أما في مجال القصة الأوروبية فنجد أن هذه القصة تأثرت في نشأتها بما كان عند العرب من فنون القصص في العصور الوسطى وهي : المقامات، وأخبار الفروسية، وأمجاد الفرسان ومغامراتهم لأحراز المجد أو في سبيل الحب .

وترى طائفة من النقاد الأوروبيين أن رحلات « جليفر » التي ألفها سويفت، ورحلة « روبنسون كروزو » التي ألفها ديفوى، تدين لقصص ألف ليلة وليلة، ولرسالة حي بن يقظان التي ألفها الفيلسوف الأندلسي المسلم ابن الطهليل، وقد وضع أنه كان لترجمة ألف ليلة وليلة إلى اللغات الأوروبية أول القرن الثاني عشر أثر عظيم وبالعنصر الخطورة على الأدب الأوربي .

ولم تنقطع الصلة بين الأدب الاسلامي والآداب الأوروبية الحديثة حتى اليوم . ويكفى لبيان الأثر الذي ابقاه الأدب الاسلامي في آداب الأوروبيين أننا لا نجد أدبيا واحدا من نوابغ الأدباء عندهم قد خلا شعره أو نثره من الإشارة إلى بطل اسلامي، أو نادرة اسلامية . ومن هؤلاء : شكسبير، اديسون، بايرون، سودى، كولردج، شيلي من أدباء الانجليز، ومن أدباء الألمان، جيته، هرور، وليسنج، ومن أدباء فرنسا : فولتير، لافونتين . وقد صرح لافونتين باقتدائه في أساطيره التي ألفها بكتاب كليلة ودمنة الذي عرفه الأوروبيون عن طريق المسلمين .

٢- في الفلسفة :

كان أثر المسلمين في التفكير الفلسفي لأوروبا عظيما، وكانت إسبانيا هي مركز تأثير الفلسفة الاسلامية على الفكر الأوربي الغربي لأن أوروبا لم تعرف فلاسفة الشرق الا عن طريق الأندلس حيث أشرف ريموند أسقف طليطلة على ترجمة أعمال الفارابي وابن سينا والغزالي وغيرهم والعرب هم الذين حفظوا فلسفة كبار فلاسفة اليونان وعلى ماسطوره في كتبهم وبخاصة أرسطو وأوصلوا هذا التراث إلى الغرب . فاتصال العقلية الأوربية الغربية بالفكر العربي هو الذي دفعها لدراسة الفلسفة اليونانية .

وقد قرر روجر بيكون أن معظم فلسفة أرسطو ظلت عديمة الأثر في الغرب لضياع المحفوظات التي حوت هذه الفلسفة أو لندرتها وصعوبة تذوقها حتى ظهر فلاسفة المسلمين الذين قاموا بنقل فلسفة أرسطو وشرحها وعرضها على الناس عرضا شاملا .

ومن فلاسفة الأندلس الذين كان لهم أعمق الأثر في الفكر الأوربي، ابن باجه، وابن الطفيل، وابن رشد .

ويعد ابن رشد الشارح الأعظم لفلسفة أرسطو، وكان أول من أدخل فلسفة ابن رشد إلى أوروبا « ميخائيل سكوت » سنة ١٢٣٠ م . ولم يأت منتصف القرن الثالث عشر حتى كانت جميع كتب هذا الفيلسوف قد ترجمت إلى اللاتينية . ولم ينتصف القرن الخامس عشر حتى صار ابن رشد صاحب السلطان المطلق في كلية بارو بايطاليا والمعلم الأكبر دون منازع^(١) .

(١) جوده هلال ومحمد صبيح : قرطبة في التاريخ الاسلامي، ص ١٠٤ - ١٠٥ .

ويبدو أثر ابن رشد واضحاً في خروج كثير من الغربيين على تعاليم الكنيسة وتمسكهم بمبدأ الفكر الحر وتحكيم العقل على أساس المشاهدة والتجربة. وقد ظهر أثر آراء ابن رشد واضحاً في فلسفة القديس توما الأكويني (١١٢٥ - ١٢٧٤م) حتى أن الفصول التي كتبها توما في العقل والعقيدة وعجز العقل عن إدراك الأسرار الإلهية ليست إلا مقابلاً لما كتبه ابن رشد في باب « فضل المقال فيما بين الحكمة والشرعية من الاتصال » وبلغ تأثير توما بفلسفة ابن رشد أن كتاب « الخلاصة » لتوما يحوى بعض مذاهب إسلامية الأصل، مما يثبت أن الأثر الذى تركه ابن رشد في عقلية الغرب لم يكن مجرد لشروح كتابات أرسطو وإنما كان أعمق من ذلك بكثير^(١).

ويعد الفيلسوف الألماني المعاصر كانت Kant من أكبر تلاميذ ابن رشد يقول جوستاف لوبون عن ابن رشد إنه : « كان الحجة البالغة للفلسفة في جامعاتنا منذ أوائل القرن الثالث عشر من الميلاد، لما حاول لويس الحادى عشر تنظيم أمور التعليم في سنة ١٤٧٣م أمر بتدريس مذهب هذا الفيلسوف العربى ومذهب أرسطو^(٢) ».

وكان للفيلسوف الصوفى محى الدين بن عربى (٥٦٠هـ / ١١٦٤م - ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م) أثر كبير في عقول النساك والمتصوفة من فقهاء المسيحية الذين ظهروا بعده.

يرى الأستاذ آسين بلاسيوس الأسباني أن نزعات دانتي الصوفية

(١) سعيد عاشور: فضل العرب على الحضارة الأوروبية. القاهرة ١٩٥٧، ص ٣٦.

(٢) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص ٥٦٩.

وأوصافه لعالم الغيب مستمدة من محى الدين بن عربى بغير تصرف كثير .

ومن المعلوم أن أول الفلاسفة الصوفيين من الغربيين هو جوهان أكهارت الألمانى فقد نشأ في القرن التالى لعصر ابن عربى ودرس في جامعة باريس، وهي الجامعة التي كانت تعتمد على الثقافة الأندلسية في الحكمة والعلوم، وأكهارت يقول كما يقول ابن عربى، إن الله هو الوجود الحق ولا موجود سواه، وأن الحقيقة الالهية تتجلى في جميع الأشياء ولا سيما روح الانسان التي مصيرها إلى الاتصال بالله من طريق الرياضة والمعرفة والتسبيح، وأن صلة الروح بالله ألزم من صلة المادة بالصورة، والأجزاء بالكل، والأعضاء بالأجسام^(١).

وقد اقتبس الفيلسوف المتصوف الأسباني - رايمود لول - من ابن عربى خاصة في كتابه « أسماء الله الحسنى » لأنه كان يحسن العربية، وعاش بعد ابن عربى بقرن واحد، وجعل أسماء الله مئة، وهي لم تعرف بهذا العدد في الديانة المسيحية قبل ذلك .

٣- في الطب :

جاء الاسلام فقضى على الكهانة وفتح الباب للطب الطبيعى على مصراعيه لأنه أبطل المداواة بالسحر والشعوذة ولم يحدث في مكان الكهانة طبقة جديدة تتولى العلاج باسم الدين، بل سمح للنبي عليه الصلاة والسلام باستشارة الأطباء ولو من غير المسلمين فلما مرض سعد بن أبى وقاص في حجة الوداع عاده النبي وقال له : « إني لأرجو أن يشفيك الله حتى يضر بك قوم وينتفع بك آخرون »، ثم

(١) عباس محمود العقاد : أثر العرب في الحضارة الأوربية . القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٩٨-٩٩ .

قال للحارث بن كدة: «عالج سعدا مما به» والحارث على غير دين الاسلام. وذكر القرآن الكريم لقمان الحكيم ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله﴾ ومنها التطبيب أو هي الطب قبل سائر ضروب الحكمة، فجعل الاسلام هذه الصناعة نعمة يشكرها من أسبغها الله عليه، واتخذها وظيفة معترفا بها.

كان الطب العربي الاسلامي يستهدف حفظ الصحة على الأصحاء- وهذا هو الجانب الوقائي الذي نسميه الآن بعلم الصحة، وقد توصلوا إلى الوقاية من الأمراض بدراسة الجسم ووظائف أعضائه، وحاولوا الكشف عن أسباب الأمراض وطرق انتشارها، لمعرفة أساليب الوقاية منها، كما يستهدف الطب الاسلامي رد الصحة إلى المرضى، وهذا هو شفاء الأمراض.

وقد تشعب الطب العربي الاسلامي في العصور الوسطى فروعا تخصص في كل منها فريق من الأطباء يقول ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ - ١٣٥٠م): الطبيب هو الذي يختص باسم الطبائعي، وبمروده (وهو الكحال أى طبيب العيون) وبمبضعه وهو الجراحى (أى الجراح) وبموسه وهو الخاتن، وبمحاجمه وشرطه وهو الحجام، وبخلعه ووصله ورباطه وهو المجبر، وبمكواته وهو الكواء، وبقربته وهو الحاقن، وسواء كان طبه لحيوان بهيم- بيطري، أو انسان فاسم الطبيب يطلق على هؤلاء جميعا. بل إنهم عرفوا التخصص في طب الأسنان وأمراض التوليد والنساء والأطفال، والعيون- بل حتى طب الأمراض النفسية والعصبية. وقد التزم الأطباء بميثاق أخلاقي يعود الى أبقرات + ٣٧٠ ق.م. بل تنحدر بعض تعاليمه إلى مصر القديمة. وقد أوجب الخليفة المقتدر عام ٣١٩هـ / ٩٣١م على من يزاول

مهنة الطب أن يجتاز امتحانا يرخص له بمزاولة المهنة، وتقدم
للامتحان في بغداد وحدها نحو تسعمائة طبيب، غير مشاهير الأطباء
والصيادلة يخضعون للرقابة وفقا لنظام الحسبة في الاسلام.

وكان هذا وغيره في الاسلام في وقت حرمت فيه الكنيسة في
أوروبا صناعة الطب، لأن المرض عقاب من الله لا يجب علاجه
أو منعه ورده، وظل الطب محرما في أوروبا حتى عصر الايمان في
مستهل القرن الثاني عشر أبان الحضارة الأندلسية.

وقد عرفت في طب العرب موسوعات طبية اسلامية ترجمت
كلها إلى اللاتينية اطلع عليها أطباء أوروبا ونهلوا من معينها حتى مطلع
العصور الحديثة، كان في مقدمتها كتاب القانون لابن سينا في القرن
الثاني عشر. وقد جمع خلاصة الطب عند العرب واليونان والسريريان
والأقباط، وضم ملاحظات جديدة عن الالتهاب الرئوى وعدوى
السل. مع وصف لسبعمائة وستين دواء. وقد ترجمه جيرار الكريمونى
إلى اللاتينية وطبع عشرات المرات.

كما ترجم الحاوى للرازى (ت ٣٢٠هـ / ٩٢٦م) وهو أكبر من
القانون وأوسع مادة وموضوعا، وقد أكمله تلاميذ الرازى بعد موته،
وترجم إلى اللاتينية في عام ١٤٨٦م. وفيه آراء جديدة عن الفتق
والحجامة والحميات وأعصاب منطقة الحنجرة وعضلاتها، وله
كتاب المنصورى الذى ترجم عام ١٤٨١م ورسالة عن الجدرى^(١)
والحصبة بوصف وتشخيص آية في الدقة لأول مرة.

ولعل الرازى كان أول واضع لعلم الطب التجريبي، فقد كان

(١) لاروس القرن العشرين: انظر الرازى.

يجرى تجاربه على الحيوانات، فيجرع القردة الزئبق، ويختبر تأثير الأدوية على الحيوانات ويسجل عليها العمل اليوم، فكان يدع مريضه يسرد قصته على سجيته، ثم يسأله عن احواله الحاضرة مفصلا، ثم عن سوابقه الشخصية والأثرية، ويدون جميع ذلك في سجل خاص، يحفظه للرجوع اليه، كلما لزم ذلك .

وكان الكتاب الملكي في الطب لعلی بن عباس (ت ٣٨٤هـ / ٩٩٤م) شائعا عند الأوربيين لستة قرون من الزمان (١)، كما كان خلف بن قاسم الزهراوی (ت ٤١٤هـ / ١٠١٣م) معروفا عند الأوربيين بكتابه: « التصريف لمن عجز عن التأليف » بأجزائه الثلاثة . وقد أفرد القسم الأخير منها للجراحة، وفيه أشار إلى أهمية التشريح للجراح، ووصف كثيرا من الجراحات بأسهاب، وأجرى جراحات في شق القصبة الهوائية وتفتيت الحصاة في المثانة وخاصة عند النساء عن طريق المهبل . وسبق إلى استخدام ربط الشرايين، ووصف استعداد بعض الأجسام للنزيف وعلاجه بالكي، وقد زود كتابه برسوم للآلات الجراحية . وقد ترجمه إلى اللاتينية جيرار الكريموني وطبع في أوربا عشرات المرات، وكان مرجعا في جامعات سالرنو ومونيليه وغيرهما .

وفطن العرب إلى أمراض النساء والولادة، وحسبنا أن نشير إلى ماكتبه أمثال علی بن عباس في توليد الجنين الميت، والأدوية المانعة للحمل، أو النصائح التي تتعين مراعاتها عند التوليد .

أما في علم الرمد فإن حنين بن اسحق = ٨٧٧م كان أول من

(١) سيدو : تاريخ العرب العام ٢ / ٧٧ .

طبع العربية بطابع الأسلوب العلمي، وكان كتابه «العشر المقالات في العين» أول كتاب موجود اصطنع في طب العيون منهجا علميا، وزود برسوم شيقة، وهي أول وأدق رسوم عرفت في تشريح العين كما يقول ناشر الكتاب بالقاهرة ماكس مايرهوف- ويقول مؤرخ الطب العربي ادور براون: إن يوحنا بن ماسوية + ٨٢٧م قد وضع كتابه «دغل العين» فكان أول كتاب عربي في علم الرمد وأقدم ماوضع في طب العيون في مختلف اللغات القديمة.

وكان الأطباء العرب في القرن العاشر، يعلمون تشريح الجثث في قاعات مدرجة خصصت لذلك في جامعة صقلية. واكتشف ابن النفيس الدمشقي المصري الدورة الدموية الصغرى، ونقلها عنه «هارفن» الانجليزي وعزاها لنفسه ومثل ذلك فعل «سرفينوس» الايطالي، ويدعم ذلك ماقاله المؤرخ المعاصر «مايرهوف»: «إن ماأذهلني حقا، مماثلة الجمل الأساسية في أقوال هذين الطبيبين لما كتبه ابن النفيس وكأنها ترجمت ترجمة حرفية»، ويؤيد ذلك أيضا العالم «الدوميالى» في كتابه عن علوم العرب، كما يؤيده الأستاذ الدكتور ليون بينه Leon Binet أستاذ الفسيولوجيا بباريس.

وكان العرب أول من اهتمدى إلى القول بأن الأوبئة تنشأ عن تعفن ينتقل عن طريق الهواء والمخالطة وسمو الأمراض المعدية بالسارية، ودليلها عندهم أن من خالط مريضا بها أو لبس ثيابه انتقلت إليه عدواه، وكانوا أول من فطن إلى تفتيت الحصاة في المثانة. ومن أوائل من استخدموا المخدر- وسموه بالمرقد- ولعلمهم أول من اخترع الاسفنجة المخدرة، واستبدلوا بالأدوية الحارة الأدوية الباردة في علاج الفلاج والاسترخاء ونحوه، على غير ماكان الحال

عند أسلافهم من اليونان، وكانوا أول من استخدم في الجراحة الكاويات، ونبه إلى شكل الأظافر في المصدورين، ووصفوا صب الماء البارد لايقاف النزيف... الخ.

وعالج العرب الجنون علاج الأمراض الطبيعية، وكان يسمى عند الأفرنج بالمرض الالهي أو الشيطاني لأنهم حسبوه من اصابات الأرواح أو الشياطين. ولقد أورد صاحب عيون الأنباء في طبقات الأطباء، من أسماء الأطباء العرب، مانيف عن الثلاثمائة، هذا عدا كثير من الذين لم يتح لهم حظ الشهرة وذيوع الصيت، ويعترف الفيلسوف الألماني «هومبولد» بأن العرب قد أبدعوا شيئاً كثيراً في الطب، وأوجدوا علم الصيدلة الكيماوية، وعرفوا كثيراً من النباتات الطبية، والتي أضيفت إلى ما كان يعرفه الأغريقيون جاءت في كتب ابن سينا وابن داود وابن البيطار وغيرهم.

وحرص الخلفاء وأهل اليسار على إقامة المستشفيات والمعاهد لتعليم الطب ودور لعلاج المرضى، وكان أول من أقامها في الاسلام هو الوليد بن عبد الملك (عام ٨٨ هـ / ٧٠٦ م) وقد قرر بها الأطباء وأجرى عليها الأرزاق. ثم عرفت حواضر الاسلام المستشفيات الثابتة والمتنقلة مع انتشار الأوبئة والأمراض، أو تنقل الخلفاء والأمراء؛ وقد زودت بصنوف الأدوية وأنواع الطعام والشراب والملابس والصيدالة والأطباء- وكان في كل مستشفى جناح للذكور وآخر للإناث؛ وخصص لكل نوع من الأمراض جناح خاص بمرضاه، وألحقت بكل مستشفى صيدلية تضم أنواع الشراب والمعالجين والأدوية، ويشرف عليها رئيس يتبعه معاونون، ويقيم المريض بالمستشفى أو يأخذ معه الدواء إلى بيته اذا لم يقتض مرضه الإقامة. ويتفقد الأطباء مرضاهم

في الأقسام التي يقيمون بها؛ وكانت تحبس الأوقاف على المستشفيات، وترصد لها الأموال وينفق عليها في سخاء؛ وإذا فرغ الأطباء من أعمالهم مضوا إلى خزائن الكتب في مستشفياتهم أو دورهم وأكبوا على القراءة لتكون عوناً لهم في ممارسة مهنتهم؛ وإذا دخل المريض المستشفى نزعته عنه ثيابه وحفظت مع نقوده عند أمين المستشفى ثم ألبس ثياب المستشفى وقدم له العلاج والغذاء والدواء بالمجان حتى يبرأ من مرضه. وعلامة ذلك أن يقوى على أكل فروج ورغيف؛ وعندئذ يعطى له مال وثياب ويؤذن له في الخروج، كما كان يحدث في مستشفى بیمارستان العتيق الذي أنشأه أحمد بن طولون عام ٢٥٩هـ / ٨٧٢م.

وقد اشتغلت النساء المسلمات بالتمريض منذ عهد الرسول وخاصة في أوقات الحروب، ومن هؤلاء النسوة: رفيدة الأنصارية^(١)، وأم عطية الأنصارية، ونسيبة بنت كعب التي مرضت في موقعة أحد وحاربت مع الرسول ودافعت عنه، كذلك حاربت مسيلمة الكذاب في حرب اليمامة وفقدت في الحرب ذراعيها، وكانت هؤلاء النسوة يمرضن في معسكرات التمريض التي كانت في مؤخرة جيش المقاتلين وينتقلن مع الجنود ويحملن أدواتهن على الجمال والبغال.

٤- في الصيدلة أو الأقرباذين :

يقول البيروني (ت ١٠٥٠م) إن الصيدلي^(٢) أو الصيدلاني

(١) ابن الأثير: أسد الغابة ٧/ ١١٠.

(٢) جاءت كلمة الصيدلة من أصل هندي، واللفظ «صدلي» منقول إلى العربية من الهندية من لفظ «جندناني» والجندنان هو الصندل، وكان الصندل الهندي من العطور المعروفة عند العرب، واستعمله الهنود دواءً ردها من الزمن.

يراد به: المحترف بجمع الأدوية على إحدى صورها، واختيار الأجود من أنواعها مفردة أو مركبة، على أفضل التراكيب التي خلدها أهل الطب، فهو الذى يجمع الأعشاب التي تستخدم في العلاج، والدواء وهو العقار في الصيدلية، ويراد بالأقرباذين تركيب الأدوية المفردة وقوانينها فيما يقول حاجى خليفة.

وقد صح عند الباحثين من الغربيين أن العرب هم الذين ابتدعوا فن الصيدلة، وأنهم أول من اشتغل بتحضير الأدوية الطبية، وقد جدوا في البحث عن العقاقير في مظانها المختلفة، وابتكروا الكثير جدا من أنواعها؛ وعنهم أخذت أوربا هذا الفن، ولا يزال الكثير من العقاقير يحتفظ في اللغات الأوربية بأسمائه العربية، وكان العرب أول من ألف الأقرباذين على النحو الذى يعرف به في أيامنا الحاضرة.

والعرب هم الذين ارتقوا بالصيدلة من مستوى مجرد تجارة العقاقير والتوابل إلى انشاء مدارس للصيدلة وحوانيت للصيدلة (الأجزاخانات) وكان أول من وضع الأقرباذين سابور بن سهل المتوفى عام ٢٥٥هـ، وأمين الدولة ابن التلميذ المتوفى عام ٥٦٠هـ. كما وضعوا الكتب الصيدلية الخاصة بالتراكيب أى الأقرباذين. وللدلالة على طول باعهم في هذا المجال هو تأليف دساتير الأدوية، ونذكر نخبة من أشهرها: الحاوى للرازى، قانون ابن سينا، وتذكرة داود الانطاكى، والجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار، وكتاب الصيدلة للبيرونى، وكتاب العقاقير للبيرونى.

وكان العرب أول من أدخل التقييم المهنى للصيدلة فعينوا لكل مدينة عميدا للصيدالة، كما أدخلوا الوصفة الطبية وعلى الطبيب أن

يحررها ويكتب الأدوية عليها؛ كما أدخلوا نظام إجازة الممارسة أسوة بما هو معمول بالطب بحيث لا يسمح للصيدلى بممارسة المهنة الا بعد اجتيازه الامتحان أمام المحتسب، وتقييد اسمه في جدول الصيدالة الخاص لذلك .

وهم أول من منع تدخل الصيدلى بأمر الطبيب ومنعوا الطبيب من امتلاك صيدلية أو التعاطى بالأدوية .وهم أول من وضع نظاما لمراقبة الأدوية وفرضوا تسعيرة الأدوية كما حذروا الصيدالة من بيع السموم الضارة، وكان يقوم بالتفتيش على الصيدليات المحتسب بشكل دورى، وربما أسبوعى وأحيانا برفقة الشرطة لمنع الغش والتدليس .

ومن الأعمال التي قام بها الصيدالة العرب تحسين ذوبان وطعم الأدوية، وأدخلوا تحضيرات جديدة كالمربيات والأشربة الحلوة والمستحلبات .وهم أول من استعمل الوسائل المعطرة بماء الورد والبرتقال والياسمين والليمون واليانسون؛ وقد حسن العرب المراهم والأدهان والمعاجين واللدائن في معالجة الأمراض الجلدية، وكانوا أول من غلف الأقراص بالسكر والفضة، حتى يصير طعمها مقبولا، كما حضروا الأقماع والتحاميل .

وقد تقدم علم الصيدلة ونما بشكل فريد دفع المسؤولين بضرورة حماية الجمهور من سوء استعمال الدواء، ولذلك كرسست الحكومة فصل الطب عن الصيدلة وأصبحت بالفعل مهنة مستقلة قائمة بذاتها، وظهرت فئة من الصيدالة الممارسين وفتحوا حوانيتهم (الصيدلة) على الطرق مباشرة يبيعون الدواء من خلالها للمرضى

بناء على وصفات طبية، وبالتدريج تطورت مهنة الصيدلة وانفصلت عن العطار مثلما حدث بالنسبة لانفصالها عن الطب. وكان أول حانوت (صيدلية) قد افتتح في بغداد ولأول مرة في التاريخ، ولم تفتح الصيدليات في أوروبا على هذه الشاكلة الا بعد خمسمائة سنة^(١).

٥- في الكيمياء :

اتجه جمهرة القدماء إلى البحث في خصائص الأشياء، وتحويل المعادن الخسيسة- من رصاص وحديد وقصدير- إلى ذهب أو فضة. ولهذا اقترنت بحوثهم بالسرية والرمزية والغموض. وسرى هذا التيار عند بعض مفكرى العرب في عصورهم الوسطى، ولكن الكثيرين منهم قد انصرفوا عن ذلك الى الاتجاه ببحوثهم الكيميائية اتجاها تجريبيا واضحا.

ويكاد ينعقد رأى اليوم عند الباحثين من الغربيين على أن العرب هم مؤسسو الكيمياء علما تجريبيا شأن غيره من العلوم الطبيعية؛ فهم الذين خلصوا دراساتهم من السرية والغموض والرمزية التي لازمتها عند أسلافهم- من علماء الاسكندرية بوجه أخص- واصطنعوا فيها منهجا استقرائيا يعتمد على الملاحظة الحسية والتجربة العلمية. وقد استخدموا الموازين والمكاييل وغيرها من الآلات تحقيقا للدقة والضبط؛ وكانت هذه وثبة جريئة واعية في التمكين لمنهج البحث العلمي الصحيح.

(١) رياض رمضان العلمي : الدواء من فجر التاريخ إلى اليوم. الكويت ١٤٠٨هـ. ص ٣٧-٣٩.

وقد أحصى المؤلفون العرب الآلات التي استخدمها علماءهم في بحوثهم الكيميائية فكان منها فيما يروى محمد بن أحمد الخوارزمي الكاتب (ت ٣٦٩هـ / ٩٧٦م) في كتابه «مفاتيح العلوم»: الكود والبوطق (البوتقة) والمشاق (الماشة) والراط الذي يفرغ فيه ما يذاب من ذهب أو غيره؛ وكان من آلات التدبير: الأنبيق والزرق (لتصفية الزئبق وغيره) والموقد؛ وكان من العقاقير التي استخدموها في بحوثهم الملح بأنواعه المختلفة والزجاجات (البلورات) واللازورد والكحل والزرنيخ وغير ذلك كثير.

وقد كان في مقدمة رواد الكيمياء علما تجريبيا جابر بن حيان. ويقول عنه هولمبارد Holmyard أستاذ الكيمياء بكلية كلفتون بانجلترا في كتاب أصدره عن مؤلفات جابر بن حيان سنة ١٩٢٣: إنه أول مبدع الكيمياء على أسس علمية صحيحة، بل هو فيما قال ناشر رسائله- بول كراوس من أعظم رواد العلوم التجريبية لأنه جعل الميزان أساسا للتجريب، وهذا خير وسيلة لمعرفة الطبيعة معرفة دقيقة وقياس ظواهرها قياسا كيميا، والكمية عند جابر تشتمل على الأعداد والأقدار من الأوزان والمكاييل وما شاكلها؛ وعنده أن المكيفات- وهي الصفات التي لا تقاس- لا أوزان لها؛ وهكذا أرجع ظواهر الطبيعة وكل معطيات المعرفة البشرية عامة إلى قوانين العد والقياس، وهذه- فيما يقول كراوس- أقوى محاولة في العصور الوسطى لإقامة مذهب كمي لعلوم الطبيعة^(١).

ويسمى ابن خلدون الكيمياء بعلم جابر^(٢). ويعده مؤرخ الطب

(١) بول كراوس: جابر بن حيان: المجلد الثاني، ص ١٠.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، ص ٥٠٤.

العربي لوسيان لوكير أعظم علماء عصره، ومن أكبر علماء العصور الوسطى كلها، وكان جابر صاحب مدرسة تابعت بحوثه الكيميائية على أساس من الملاحظة الحسية والتجربة العلمية، وقد وصف ملح النشادر ونترات الفضة والسليمانى وحامض الأزوت، وعرف كثيرا من العمليات الكيميائية كالتبخير والتقطير والترشيح والتكليس والاذابة؛ وكان أول من لاحظ أن نترات الفضة تكون مع ملح الطعام راسبا أبيض وأن النحاس يكسب الذهب لونا أخضر وترجمت كتب جابر في الكيمياء إلى اللاتينية وظلت المراجع المعتمدة في الكيمياء لعدة قرون.

وأبو بكر الرازى (٨٦٦هـ - ٩٤٤م) أعظم رواد الكيمياء الأوائل، وقد وفق في كتابه «سر الأسرار» الذى ترجمه وشرحه يوليوس روسكا J.Ruska إلى تخليص الكيمياء من الرمزية والغموض، واتجه بها اتجاهها تجريبيا علميا^(١)، واقتصر على النتائج التى هدته إليها التجربة؛ وقد ضمن كتابه المواد التى استخدمها والأدوات التى استعان بها، وكذلك الطرق التى استعان بها فى اعداد الخمائر المطلوبة، وقد ابتكر أجهزة ووصف أخرى، منها المعدنى والزجاجى وقد حضر الأحماض مثل حامض الكبريتيك وسماء زيت الزاج، وحضر الكحول بتقطير مواد نشوية وسكرية متخمرة وقدر الكثافة النوعية لعدد من السوائل باستعمال ميزان خاص. وحينما أرخ سارطون للعلم فى الفترة التى عاش فيها الرازى جعل منه علما

(١) بارتنجتون: موجز تاريخ الكيمياء، ص ٢٩.

عليها^(١)، كما أنه أحد الرواد الذين كانوا طليعة المدرسة الكيميائية «الطبية» في عصر النهضة^(٢). ويقول مؤرخ الحضارة ول ديورانت: إن الفضل في ابتداع الكيمياء علما تجريبيا يترد كله الى المسلمين لأنهم هم الذين اصطنعوا مناهج البحث العلمى وهو ميدان كان يجهله اليونان .

ومن أشهر علماء المسلمين في الكيمياء عز الدين بن أيدير بن على الجلدكى (ت ١٣٦٢م) يقول الأستاذ الدكتور عزة مريدن في معرض حديثه عن العلماء العرب: (..... ومنهم هذا الجلدكى العجيب الذى ماقرأت قصيدته مرة الا أقسمت غير حاث إن هذا هو مكتشف الذرة وواضع أسس الصواريخ، وهو يصف كنه الذرة في المعادن والعناصر الكيماوية ويشبهاها بالمجموعة الشمسية على نحو مايفعل علماء الذرة اليوم حينما يبحثون في البروتون والنوترون المركزيين، والألكترون الذى يحيط بهما)^(٣).

ولعل التاريخ الأوربي لم يتأثر بشيء من كشوف العرب في المعدنية كما تأثر بكشف البارود واستخدامه في قذائف الحصار وأسلحة القتال .

٦- في الطبيعيات :

في دراسات العرب في علم الطبيعة تتمثل خصائص المنهج العلمى التجريبي السليم . ومن أعلام هذا الاتجاه الحسن بن الهيثم

(١) جورج سارطون : مقدمة لتاريخ العلم . المجلد الأول ، ص ٥٨٧ .

(٢) المصدر نفسه : وانظر أيضا و . س . دامبيير : تاريخ العلم ، ص ٨١ .

(٣) عزة مريدن : فضل العرب على الانسانية في الميادين العلمية . محاضرة نشرها المجلس الأعلى للعلوم

عام ١٩٦١ ، ص ٩-١٦ .

(ت ١٠٢٩م) وأبو الريحان البيروني (ت ١٠٤٨م) فأما أولهما فقد كان عالما رياضيا قدر له أن يكون منشيء علم الضوء غير منازع، اذ ميزت دراساته دقة أوصافه للعين وادراك الرؤية وتفسير الانكسار الجوى والرؤية المزدوجة .

وقد درس بمنهجه العلمي الدقيق انعكاس الضوء ووضع نظرية كانت اجابة على هذا السؤال : اذا كانت لدينا مرآة اسطوانية وشيء آخر يشبه النقطة، فكيف نحدد الوضع الذى تتخذه العين لترى هذا الشيء في المرآة؟ وكانت اجابة ابن الهيثم في صورة معادلة من الدرجة الرابعة حلها عن طريق خط تقاطع دائرة وقطاع زائد .وهكذا بدت نزعة العلمية الدقيقة في نظريته في انعكاس الضوء .

وكان من رأيه أن الضوء ينشأ من المرئيات ولا ينبعث من العين ليلمسها كما ظن - خطأ- أسلافه من القدماء . وأعظم كتبه في هذا المجال هو « المناظر »^(١)، وقد ترجم فردريك رستر Frederick Risner هذا الكتاب إلى اللاتينية ونشر في مدينة بازل بسويسرا عام ١٥٧٢م بعنوان « كنز البصريات »^(٢) واثّر تأثيرا بالغا في وايتلو + (١٢٧٠م Witelو وروجر بيكون + ١٢٩٢م وليونارد دافنشى + ١٥١٩م وكليبر + ١٦٣٠م وغيرهم من علماء أوروبا المعروفين .

أما البيرونى فقد كان بدوره من أشهر علماء الطبيعة والرياضة . وقد توصل في ضوء منهجه العلمى إلى تقديرات للثقل النوعى

(١) وصف العلامة مصطفى نظيف ابن الهيثم بأنه يأتى «في المقدمة بين علماء الطبيعة النظرية بما وضع من ظواهر الضوء . وأن أثره في العلم لا يقل عن أثر نيوتن في علم الميكانيكا» . انظر حميد موراني وعبد الحليم منتصر: قراءات في تاريخ العلوم عند العرب، ص ١٢٧-١٢٨ .

(٢) جوان فيرنيه: الرياضيات والفلك والبصريات في (تراث الاسلام) ترجمة حسين مؤنس واحسان صدقي العماد : الجزء الثانى، ص ٣٤٠ .

وأبعاد الأرض، وظواهر الشفق وكسوف الشمس ونحوها من ظواهر، في دقة أثارت الباحثين من الغربيين، حتى قال عنه المستشرق أدور سخاو، « انه أعظم عقلية عرفها التاريخ ». واستخدم البيروني في تقديراته للثقل النوعي جهازه المخروطي الذي يعد أقدم مقياس للكثافة .

والخازن وهو أحد علماء النصف الأول من القرن الثاني عشر- وصف الموازين وله كتاب « ميزان الحكمة » وبه وصف دقيق للموازين التي كان يستعملها المسلمون في تجاربهم ومنها ميزان توزن فيه الأجسام في الهواء والماء. ويشتمل الكتاب كذلك على الكثير من الأوزان النوعية للمعادن والسوائل وسائر المواد الأخرى .

وللخازن أيضا نظريات في الضوء. وقد لاحظ من ألف سنة انكسار الأجسام عند انغماسها في الماء، وقد ترجمت كتب الخازن إلى اللاتينية ثم إلى الإيطالية في وقت مبكر واستعان بها رجال العلم في أوروبا . واستقى روبرت جروسستست (Grosseteste ١١٧٥- ١٢٥٣م) أسقف لنكولن الذي يعتبر أول مثل بارز لعلماء الطبيعة في غرب أوروبا في أوائل القرن الثالث عشر معلوماته من ترجمة لاتينية لكتاب الخازن . كذلك أخذ روجر بيكون .

ولقد ساعدت أفكار البيروني وابن سينا في الجاذبية الأرضية نيوتن ومهدت له سبيل الكشف لقانون الجاذبية وتعليل الثقل على الأساس العلمي الحديث^(١) .

(١) عباس محمود العقاد: أثر العرب في الحضارة الأوربية، ص ٤٠ .

٧- في الفلك :

برع العرب في علم الفلك وتقدموا فيه تقدما كبيرا، وكان علم الفلك يدرس في حماس في مدارس بغداد، ودمشق، وسمرقند، والقاهرة، وفاس، وطليطلة، وقرطبة، وغيرها^(١) وأقاموا له المراصد العديدة التي انتشرت في مختلف البلاد الإسلامية من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلسي وكان من أهمها مرصد بغداد الذي دام ازدهاره سبعة قرون من سنة ٧٥٠ إلى سنة ١٤٥٠م^(٢). وقد توصلوا عن طريق هذه المدارس، وتلك المراصد إلى معلومات واكتشافات هامة، منها:

ادخال خطوط التماس في الحساب الفلكي منذ القرن العاشر الميلادي، ووضع جداول لحركة الكواكب، وتحديد سمت الشمس تحديدا دقيقا، وتدرجه في النقص، وتقدير تقدم الاعتدالين^(٣) تقديرا صحيحا، ووضع أول تحديد صحيح لمدة السنة، واثبات ما في أكبر خط عرض للقمر من ضروب عدم الانتظام، واستكشاف عدم التساوي القمري الثالث المعبر عنه اليوم بالتغير^(٤).

والتوصل إلى نظرية دوران الأرض، والاسطرلاب، وكان أنواعا

(١) الفونس ايتين رينيه: محمد رسول الله، ص ٣٧٥.

(٢) جوستاف لوبيون: حضارة العرب، ص ٤٨١.

(٣) الاعتدالان: الاعتدال الربيعي هو اليوم الحادي والعشرون من مارس من كل عام حيث يتساوى فيه الليل والنهار، والاعتدال الخريفي مماثل يقع في الثالث والعشرين من سبتمبر.

(٤) جوستاف لوبيون: حضارة العرب، ص ٤٨١.

من التام والمسطح والهلالى والمطبح^(١) واختراع آلة الرصد^(٢) « التلسكوب » والآلة المعروفة بالمثقال التي يعرف بها الأوقات على غير رسم ومثال، وحددوا في جميع أنحاء الدولة اتجاه القبلة في المساجد تحديدا دقيقا، إلى كثير من المعلومات الفلكية الهامة.

وبذلك أضافوا إلى الفكر الانساني معلومات فلكية جديدة لم تكن معروفة من قبل، وإلى جانب هذه الاكتشافات العظيمة العديدة صححوا كثيرا من الأخطاء الجسيمة التي وقع فيها الأغريق^(٣) وبهذا وذاك استفادت أوروبا والحضارات الحديثة فوائد ذات بال في علم الفلك، مما نشاهد آثارها اليوم، ومازال علم الفلك إلى الآن ملئ بالاصطلاحات العربية.

وكان من مقدمة رواد الفلك من العرب بنو موسى بن شاكر، وأبومعشر البلخي (ت ٢٧٢هـ / ٨٨٦م) وثابت بن قرة، والفرقاني، والبوزجاني، والبيروني وغيرهم، ممن ترجمت مؤلفاتهم إلى اللغة اللاتينية خاصة، وكانت مرجع الأوربيين حتى أواخر عصورنا الحديثة.

(١) انظر مادة اسطرلاب القيمة التي كتبها للبلخاني في دائرة المعارف الاسلامية ح٢، ص ١١٤-١١٨.

(٢) يصفه أبو الحسن الذي اخترعه بأنه أنبوب مثبت في طرفيه عدسات.

(٣) قاس الفلكيون العرب زمن الخليفة المأمون محيط الكرة الأرضية وتوصلوا إلى الرقم ٤١٢٤٨ كيلو مترا، وهو مقارب جدا للرقم الحقيقي البالغ ٤٠٠٠ كم وصححو بذلك الرقم الأغريقي وهو ٣٨٣٤٠ كم. كما عرف الفلكيون القدماء قطر الأرض وقدروه بالرقم ٧٦٣٦ ميلا تقريبا وبذلك يكون نصف القطر عندهم ٣٨١٨ ميلا تقريبا (انظر ما ذكره ابن سته في «القول في الأجرام والأبعاء» العلاقات النفسية، ص ١٧-٢٠).

٨- في الرياضيات :

وجه العرب جانبا كبيرا من اهتمامهم بالعلوم إلى الرياضيات . فذاعت دراستها لديهم ونبغوا فيها، وتقدموا في أبحاثها تقدما سريعا جوهريا، وأضافوا إلى مانقلوه عن اليونان والهنود الكثير مما لم يكن معروفا من قبل .

ترجم العرب رسائل هندية في الفلك وعنهما عرف العرب الأرقام الهندية التي هذبوها وسلموها إلى أوروبا فعرفت باسم الأرقام العربية . وقد استخدم محمد بن موسى الخوارزمي هذه الأرقام في جداوله الرياضية وقد اطلق اسمه على الطريقة الحسابية التي تقوم على النظام العشري، كما أنه أسهم في تقدم الحساب والجبر بكتابه المنظم المبتكر « حساب الجبر والمقابلة » وقد نقله إلى اللاتينية في النصف الأول من القرن الثاني عشر « ادلار أوف بات » الذي درس العربية في مدارس الأندلس، ونشره تحت عنوان « الفورتمى » نسبة إلى اسم صاحبه العربي .

وفي عام ٩٧٦م رأى محمد بن أحمد الخوارزمي (ت ٣٨٧هـ / ٩٩٧م) في كتابه « مفاتيح العلوم » أن العمليات الحسابية اذا خلت من رقم في مكان العشرات، تعين وضع دائرة صغيرة حتى تساوى الصفوف، واطلق على هذه الدائرة اسم « الصفر »، والصفر يعتبر من أخطر النظريات التي امتدى إليها العقل البشري في الرياضيات، وفضل العرب فيه عظيم، يقول المؤرخ « أير » « إن فكرة الصفر تعتبر من أعظم الهدايا العلمية التي قدمها المسلمون إلى عرب أوروبا » والواقع أن علامة الصفر خطوة عظيمة الأهمية في تصحيح الحساب .

وقد استعمل العرب (الصفير) للدلالة على (لا شيء) كما يبدو من بيت الشعر الذى جاء في قصيدة لحاتم:

ترى أن ما أهلك لم يك ضرئى وأن يدى ما بخلت به صفر^(١)
وكما ساعدهم نظام الأعداد العربية على ادراك الكمال في
الطرق الأولية للحساب فإن معرفتهم خصائص الأعداد الفردية
والزوجية، وما بينهما من العلاقات ساعد على استخراج الجذور
التربيعية والتكميلية^(٢).

ويدين علم الجبر باسمه إلى العرب، فهم أول من أطلق عليه
اسمه، ولا يزال الفرنجة يحتفظون حتى اليوم باسمه العربى Algebra
وقد كان العرب أول من كتب فيه على نهج علمى، وفي كتاب
الخوارزمى السالف الذكر توجد أصول هذا العلم ومقوماته كما
توجد أقدم جداول حساب المثلثات. والخوارزمى هو صاحب
الحلول التحليلية والهندسية لمعادلات الدرجة الثانية، وقد عولت
الجامعات الأوروبية على كتاب «الجبر والمقابلة»^(٣) حتى القرن
السادس عشر وعنه عرفت كلمة الجبر في اللغات الأوروبية. يقول
الدكتور على مصطفى مشرفة «ليس الخوارزمى واضعاً لعلم الجبر
فحسب بل إنه يتضح أن انتشار العلم في المشرق والمغرب إنما يرجع
الفضل فيه بعد ارادة الله إلى كتاب الخوارزمى الذى صار المرجع

(١) جورج يعقوب: أثر الشرق في الغرب، ص ٢٢-٢٤.

(٢) د. هـ. ل: الحضارة العربية ترجمة ابراهيم العدوى، ص ١٠٨.

(٣) تحتفظ له جامعة كمبريدج بأصل كتاب للحساب، كما تحتفظ جامعة أكسفورد بأصل كتابه «الجبر
والمقابلة» ومازال هذا الكتاب يترجم في القرن العشرين. فقد ترجم عام ١٩١٥.

الأول للمؤلفين والمترجمين من عرب وأعاجم ولذلك يحق لنا أن نقول إن الخوارزمي هو واضع علم الجبر ومعلمه للناس أجمعين».

وزاد نصير الدين الطوسي (٥٩٧-٦٧٢هـ-١٢٠١م) فوضع كتابا صاغ أصله تحت العنوان نفسه. وتوصل علماء العرب في هذا المجال إلى حلول للمعادلات- جبرية وهندسية. وهذا هو استخدام الرموز التي كلف بها المحدثون من الرياضيين الغربيين، تفاديا للغموض وتحقيقا للدقة.

وكان للعالم العربي ثابت بن قرة (٢٢١-٢٨٨هـ/٨٣٦-٩٠١م) الفضل في ابتداء علم التفاضل والتكامل وأسهم معه في هذا الفضل أبو الوفاء محمد البوزجاني (ت ٣٨٧هـ/٩٩٨م) وكان لهذا العلم تأثيره الملحوظ في تقدم الرياضة والطبيعة في عصرنا الراهن.

ويدين علم حساب المثلثات بوجوده لرياضي العرب؛ يقول العلامة «هل» «ومن تراث العرب علم حساب المثلثات وعلم الزوايا والتماس. ولم يكن في استطاعة بيور باخ، رجيونا نوس وكوبرنيك أن يصلوا إلى ماوصلوا اليه دون أساس من علوم العرب، وماساهموا به في ميدان الرياضيات، ذلك أن العرب أحبوا تدعيم نظرياتهم بنماذج عملية، وساعدتهم ذلك على وصول درجة الكمال في علم الجوراسيا (مقياس سطح الأرض) الخاص بقياس ارتفاع الجبال واتساع الوديان، أو حساب المسافة بين نقطتين تقعان على سطح منبسط،

واستخدم العرب هذا العلم أيضا في تصميم مجارى المياه^(١).

٩- في علم النبات :

نما علم النبات على يد العرب في خدمة الطب والصيدلة والفلاحة، وقد اصطنعوا في دراساتهم للنباتات الملاحظة والمعاينة حتى كان رشيد الدين الصورى (٥٧٣ - ٦٣٩هـ / ١١٧٧ - ١٢٤١م) يصحب معه مصورا يحمل الأصباغ المختلفة ويتوجه إلي المواضع التي فيها النبات فيشاهده ويحققه ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه وأصوله ويصور بحسبها، وكان يرى المصور النبات في إبان نباته وطراوته فيصوره، ثم يريره إياه، وقت كماله وظهور بذره فيصوره تلو ذلك، ثم يريره إياه في وقت ذواه ويبسه فيصوره^(٢). وهكذا يبدو النبات في صور شتى تمثله في كل أدواره كما يرى ابن أبى أصيبعة^(٣).

وفي ضوء هذا المنهج التجريبي وفق علماء العرب في معرفة الكثير من المواد الطبيعية التي كان يجهلها أسلافهم، وأدخلوها في العقاقير الطبية، ولعلمهم أول من استخدم الراوند وخيار الشنبر والمن والكافور. بل أنهم استطاعوا أن يستولدوا الأسود، وأن يكسبوا بعض النباتات خصائص العقاقير في مفعولها الطبي.

ومن أشهر علماء العرب دقة في دراسة النباتات أبو جعفر أحمد ابن محمد الغافقى (ت ٥٥٠هـ / ١١٦٠م) وقد ضمن كتابه في

(١) ي. هل: الحضارة العربية، ص ١٠٨.

(٢) الأعلام: ٢٣/٣.

(٣) طبقات الأطباء: ٢/٢١٦.

الأدوية المفردة أسماء النباتات بالعربية واللاتينية والبربرية، ويرى ماكس ماير هرووف أن الغافقي هو أعظم صيادلة العرب أصالة وابداعاً، وأحسن علمائهم في النبات مكانة طوال العصور الوسطى، وأن كان المشهور أن أعظم علماء النبات هو ابن البيطار (ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) وأهم كتبه «الجامع في الأدوية المفردة» وقد ضم أكثر من ألف وأربعمائة صنف من الأدوية، يقال أن بينها أربعمائة صنف لم يسبقه إليها صيدلاني من قبل. وهو أول عالم اهتم بدراسة الحشائش التي تنبت في الحقل وتضر بالمحاصيل. ومن رواد علماء الزراعة المسلمين: أبو عبدالله بن بصال الطليطلي، وابن مالك الطغرني الغرناطي، وابن العوام الأشبيلي وابن لونكو القرطبي.

وقد عاش ابن بصال في طليطلة في عصر بني ذى النون، ملوكها من الطوائف، في أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وكان يعنى بالاشراف على حدائق بني ذى النون الفخمة التي كانت (بالمنية) الشهيرة التي أنشأوها خارج طليطلة. وقد اشتهر ابن بصال يومئذ بتجاربه العلمية الناجحة في توليد الغراس، ومكافحة الآفات الزراعية، وكتابه «الفلاحة» يشهد ببراعته في هذا الميدان. وهو يتناول فيه ذكر المياه والأرضين، ومختلف أصناف النباتات وطبائعها وعلاجها من الآفات.

وأما الطغرني، فهو أبو عبدالله محمد بن مالك وهو غرناطي، وقد عاش بمملكة غرناطة في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، ووضع كتاباً في الفلاحة سماه «زهر البستان ونزهة الأذهان» وهو لا يزال مخطوطاً لم ينشر.

وأما ابن لونكو، فقد عاش في قرطبة في النصف الثاني من القرن الخامس الهجرى، وكان أيضا من تلاميذ تلك المدرسة الزراعية الباهرة. وقد توفي سنة ٤٩٨ هـ (١١٠٤ م).

وأما ابن العوام الأشبيلي فهو حسبما يرد ذكر اسمه في كتابه، أبوزكريا يحيى بن محمد بن أحمد بن العوام الأشبيلي، عاش في أشبيلية في أواخر القرن الثاني عشر الميلادى، وهو يقدم إلينا في مؤلفه الضخم كتاب «الفلاحة» عرضا مستفيضا للفنون الزراعية. وقد نشر هذا الكتاب في سنة ١٨٠٢ م بمدينة مدريد، وقام على نشره العلامة المستشرق القس يوسف انطونيو بانكيرى وقرنه بترجمة أسبانية.

وقد نقل العرب من المشرق وشمال أفريقيا إلى أسبانيا كثيرا من المحاصيل والأشجار كالقطن والأرز وقصب السكر والزعفران والنخيل الذى مازالت تزدان به الحدائق والمدن الأسبانية الجنوبية، والزيتون الذى غدا فيما بعد، وحتى اليوم أعظم محاصيل أسبانيا.

وأما نبوغ مسلمى الأندلس في تنظيم وسائل الري والصرف واستجلاب المياه وتوزيعها بالطرق الفنية فما زالت تشهد به آثارهم الباقية إلى الآن في وديان الأندلس، من القناطر والجداول الدارسة، وما زالت ثمة مناطق كثيرة ولا سيما في أحواز بلنسية ومرسية، تقوم في زراعتها على مشاريع الري الأندلسية القديمة.

وقد انتقلت الفنون الزراعية على يد الرواد المسلمين، وعلى يد المحلات الإسلامية المتعددة التي قامت خلال القرن العاشر الميلادى في جنوبي فرنسا، وفي ليغوريا وجنوبى سويسرا، إلى شعوب هذه الأقطار، ويقال أن القمح الأسود الذى يعتبر اليوم من أهم

محاصيل جنوب فرنسا إنما هو أثر من آثار أولئك الرواد، فهم الذين نقلوا بذوره إلى فرنسا، وهم أيضا الذين نقلوا فسائل النخيل الذي مازالت تزدان به شواطئ الريقييرا.

يقول «سينوبوس»: إن المسلمين استعملوا جميع أنواع الزراعة وحملوا كثيرا من النباتات إلى صقلية وأسبانيا وربوها في أوربا فأحسنوا تربيتها حتى تظنها متوطنة ومثل ذلك الأرز والزعفران والعنب والعطر والورد الأزرق والأصفر والياسمين والقطن والقصب».

وقد عرف العرب تربية الدجاج على أسس علمية، وكان موفق الدين عبداللطيف البغدادى الذى ولد في أوائل القرن الحادى عشر الميلادى بمدينة بغداد، أول من وصف تربية الدجاج على أسس علمية في التغذية والتفريخ، بل إنه قال بالتفريخ في الحضانات.

١٠ - في علم الحيوان :

عرف العرب التهجين، وتحسين النسل، وتجويد الحيوانات الملبونة، والخيول العربية الأصيلة، ذات الشهرة العالمية، لاتزال شاهدة على ذلك، ومن علماء العرب الذين اشتهروا بالكتابة في علم الحيوان الجاحظ والدميرى. ولعل كتاب «الحيوان» الذى ألفه الجاحظ، يعتبر من أروع ماكتب في علم الحيوان، من حيث الدقة والوصف والأدب، فقد كان الجاحظ أديبا وعالما ومؤلفا، كتب البخلاء، والبيان والتبيين، وترك لنا كتاب «الحيوان» الذى كان دقيقا فيه بعلمه، باحثا مخلصا في تجاربه، فلقد كان يقطع بعض الأعضاء، ويلقى ببعضها في السم، ويستقصي عن البيض، ويذبح الحيوان

ليفتش في جوفه، أو يدفنه باهالة التراب الخفيف عليه، ليعرف حركاته أو يذوقه ليفحص طعم لحمه، أو يشق بطن أنثاه ليعرف مقدار ولده، وموضع كل واحد منها، أو يجمع الأضداد ليرى تقاطعها الى غير ذلك.

وكمال الدين الدميري (٧٤٢-٨٠٨هـ / ١٣٤١-١٤٠٥م) وكتابه «حياة الحيوان» عمل عظيم ذاع صيته في الشرق الأوسط والغرب، وهو قاموس حيواني، رتب فيه صاحبه الحيوانات على حروف المعجم؛ وفي مجلة المشرق ١٠: ٧٦٥ ثم ١٥: ٣٩٢ أن الكولونيل جايكار A.S.G. Jayakar أحد أساتذة كلية بمباى بالهند ترجم كتاب «حياة الحيوان» إلى الانجليزية وطبع القسم الأول منه في لندن سنة ١٩٠٦، والقسم الثاني سنة ١٩٠٨م.

١١- في علوم البحار:

إن الفضل في تسمية «علم البحر» يرد بالدرجة الأولى للملاح العربى أحمد بن ماجد الذى عاش في ظفار بجنوب الجزيرة العربية في القرن الخامس عشر الميلادى وشهد مطلع القرن السادس عشر كذلك^(١). والملاحة الفلكية الحديثة التي تعتمد بالدرجة الأولى على ارساد النجوم الملاحية التي لا تزال تعرف بأسمائها العربية قد أسهم العرب في تقدمها اسهاما كبيرا ومن بعده علم المثلثات الكروية وقد وضع أصولها علماء عرب واستخدموها في قياساتهم الفلكية وفي ضبط المراحل الملاحية، وقد طور العرب منذ عصر الخوارزمي

(١) توفي بعد سنة ٩٠٤هـ - ١٤٩٨م «الأعلام: ١/ ٢٠٠»

وعلماء الأندلس الاسطرلاب ثم استعاضوا عنه في قياس ارتفاع النجوم بأجهزة علمية يعتمد تدريجها على حساب المثلثات وعلى اتخاذ خط الأفق الذى يسهل رؤيته في البحر كونه أحدثى للقياس بدلا من المحور الرأسى المستخدم في الاسطرلاب ،الذى يتأثر بقلقله المركب، وكانت قياساتهم لهذا السبب أكثر دقة من قياسات البرتغال^(١).

وابن ماجد أول من طور البوصلة الملاحية بالمفهوم الحديث وكانت تسمى الحققة؛ وعن العرب- إبان الحروب الصليبية- عرفها الأوربيون؛ وأول بوصلة من هذا النوع وبهذا الاسم صنعت في ايطاليا بعد عصر ابن ماجد بنحو خمسين سنة، بل إن كلمة بوصلة هي ترجمة حرفية لكلمة « الحققة » العربية^(٢).

ويعتبر كتاب الفوائد في اصول علم البحر والقواعد (في العلوم البحرية) مثالا لما يمكن ان تحتوى عليه المرشديات الملاحية، ففيه يصف المؤلف هذا العلم بأنه من العلوم المضبوطة العقلية التي تمكن الريان من الوصول إلى البلد المطلوب دون ميل أو انحراف، كما تعرف به خطوط الطول والعرض ومنها يمكن تحديد القبلة أو مواضع البلدان بالضبط، ويقتضي ذلك معرفة الريان- بالنجوم الملاحية وطرق رصدتها بدقة وتقسيم دورة الرياح ومعرفة الاتجاهات وكذلك مواسم السفر الملائمة وفقا للرياح والتيارات من وإلى الموانئ المختلفة؛ ويضيف ابن ماجد إلى كل ذلك ما يسميه بعلم الارشادات

(١) أنور عبدالمليم: الملاحة وعلوم البحار عند العرب. الكويت، ص ١٢.

(٢) المصدر السابق.

ويقصد بها معالم السواحل والجزر وخصائص المياه وطبيعة القاع
وقدرا من المعلومات عن الأسماك والطيور وحشائش البحر التي تعين
الربان على التعرف على السواحل المختلفة.

ولقد ظهر في الأمة الإسلامية كثيرون أمثال ابن ماجد من الذين
اتقنوا الملاحة، وعرفوا الكثير من أسرارها، ولهم فيها مصنفات ظلت
قرونا مرجعا للافرنج يستفيدون منها، ويستغلون محتوياتها بما يعود
عليهم بالتقدم والرفي نذكر منهم محمد بن شاذان، وسهيل بن أبان،
وليث بن كهلان، وسليمان الماهري، وعبد العزيز بن أحمد المغربي
وغيرهم.

١٢ - في الجغرافيا :

أسهم العرب في تقدم علم الجغرافيا بنصيب موفور، يدل على
ذلك مؤلفاتهم الكثيرة فيه، وما فيها من معلومات لم تكن معروفة من
قبل.

وإذا كان اليونان قد سبقوهم في ذلك فإنهم هم الذين حفظوا
معارف اليونان ودرسوها، ثم لم يلبثوا - كعادتهم - أن فاقوهم فيها،
فصححوا ما نقلوه عنهم، وأضافوا إليه الكثير مما لا عهد لليونان ولا
لغيرهم به، وقد ترجم بعض تراثهم في ذلك إلى اللاتينية في العصور
الوسطى، والحق أن أوروبا مدينة للعرب في معرفة المعلومات اليونانية
في الجغرافيا، فهي لم تعرف هذه المعلومات الا من الكتب العربية.

وقد ساعد العرب على هذا التفوق حبهم للسياحة والرحلات،
فجابوا البلاد من الصين إلى مجاهل أفريقيا، وأقاموا علاقات تجارية

واسعة مع بلاد لم يسمع بها الأوروبيون، أو شكوا في وجودها.

ومن طلائع هؤلاء الرائدین التاجر سليمان، والذي أبهر من سیراف على الخليج العربی، وجاوز المحيط الهندی، وبلغ شواطئ الصين، ثم كتب رحلته في سنة ٨٥١م، وكتابه هو أول مؤلف نشر في بلاد الغرب عن بلاد الصين وقد نقل إلى اللغة الفرنسية^(١).

ثم جاء من بعده المسعودی (٣٤٦هـ) الذي قضى خمساً وعشرين سنة من حياته في الطواف في الدولة الإسلامية، وفي الممالك المجاورة لها كبلاد الهند وقيد ما شاهده في تأليفه المهمة التي يعد أشهرها كتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر» الذي قال فيه ابن خلدون: «إنه شرح فيه أحوال الأمم والآفاق لعهدده شرقاً وغرباً، وذكر نحلهم وعوائدهم، ووصف البلدان والجبال والبحار والممالك والدول، فصار إماماً للمؤرخين يرجعون إليه، وأصلاً يعولون في تحقيق الكثير من أخبارهم عليه».

كما قام ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ) برحلاته التي طاف فيها بجميع أنحاء العالم القديم تقريباً، وقد ترجمت هذه الرحلة إلى أكثر من لغة، وطبعت في باريس في عامي ١٨٥٣ و ١٨٥٩، ولندن عام ١٨٢٩، وبرلين عام ١٩١٢م.

وعن فضل الرحالة المسلمين كتب المؤرخ زكي حسن في خاتمة كتابه «الرحالة المسلمون في العصور الوسطى» يقول: «وحسبنا لتبيان فضل الرحالة المسلمين أن ينتهي بنا المطاف إلى أن

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص ٤٩١-٤٩٢.

دراستهم على نحو واف دقيق أمر لا بد منه لكل بحث في تاريخ التجارة، أو النظام السياسي، أو التاريخ الاجتماعي في الشعوب الإسلامية والأمم التي اتصلت بها، فإن ما كتبه الرحالة المسلمون من وصافين وجغرافيين كنز لا ينضب معينه، حيث إنه يضم الوثائق عظيمة الشأن في تاريخ الانسانية وفي استطاعة الباحث أن يستخرج منها شتى الحقائق ومختلف ضروب المعرفة، مطمئنا إلى نتائج بحثه، اذا أقبل على دراسة هذه الوثائق ببصيرة نافذة وبشيء من الحذر الذي يتطلبه النقد العلمي عند معالجة النصوص في العصور الوسطى غربية كانت أو شرقية^(١).

وكتب الكاتب نفسه مستشهدا بقول أحد المستشرقين الروس ماينم على تفوق الرحالة المسلمين على نظرائهم في الغرب فيقول: «وقد كتب المستشرق الروسي فلاديمير مينورسكى أن جغرافي العرب ملأوا الفراغ وسدوا الفجوة الزمنية بين عهد بطليموس العالم اليوناني وعهد ماركوبولو العالم البندقي، وأن أخبار رحالة العرب وقصصهم أكثر تنوعا وأشد حيوية وقوة مما نجده مسطورا في كتب علماء اليونان وجداولهم، وأن عملهم الذي ضمنوه كتبهم يمتاز بأنه أعظم اختيارا ونقدا، وأكثر في في التفاصيل مما ورد في كتابات الرحالة البندقي العظيم ماركوبولو^(٢)».

واشتهر بعلم الجغرافيا كثيرا من علماء العرب، وأبرزهم الشريف الأدريسي، وقد أُلّف في سنة ١١٥٤م كتابه «نزهة المشتاق في ذكر

(١) زكى حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ص ١٧٩.

(٢) المصدر السابق، ص ١٨٠.

الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق» وهو كتاب عظيم، اشتمل على معلومات من سبقه، وعلى ما شاهدته بنفسه، وما سمعه من السائحين قبله، وهو مزود بأكثر من أربعين مصورا جغرافيا، ومصوره عن منابع النيل يثبت أن معارف العرب في جغرافية أفريقيا أعظم مما كان يظن، وقد نقل هذا الكتاب إلى اللاتينية، وتعلمت منه أوروبا علم الجغرافيا في القرون الوسطى، وظلت تعمل عليه أكثر من ثلاثة قرون.

وقد وضع الادريسي خريطة للأرض صنعها من الفضة الخالصة وهي تنزن ٤٠٠ رطل وتعتبر الأولى من نوعها؛ وقد أوضح عليها الأقاليم والبلدان والأنهار والبحار وقد قسم الادريسي الأرض في كتابه حسب خطوط العرض وكان أول من قسمها حسب خطوط الطول .

وقد توقع الادريسي وجود أمريكا في الطرف الثاني من الأرض، قبل اكتشافها بعدة قرون، ولقد نشرت مجلة «نيوزويك» الأمريكية، في عددها الصادر بتاريخ ١٠ مايو ١٩٦١، أن الدكتور «هوى لن لى» أستاذ البيولوجيا في جامعة «بنسلفانيا» أورد بعض الدلائل على أن العرب اكتشفوا القارة الأمريكية، قبل كريستوف كولومبس بأربعة قرون».

يقول المؤرخ جوتييه: «إن الشريف الادريسي الجغرافي كان أستاذ الجغرافيا الذي علم أوروبا هذا العلم وظل معلما لها ثلاث قرون؛ ولم يكن لأوروبا مصور للعالم الا مارسمه الادريسي؛ ومنهم ياقوت الحموي (٥٧٤-٦٢٦هـ / ١١٧٨-١٢٢٩م) صاحب كتاب

«معجم البلدان» وهو معجم وموسوعة جغرافية ضخمة إلى جانب ما فيه من معارف تاريخية وأدبية عظيمة؛ يقول المؤرخ «سارطون» إن كتاب معجم البلدان لياقوت، منجم غنى جدا للمعرفة، وليس له نظير في سائر اللغات» ووضع أبو الفدا (أمير حماه) كتاب تقويم البلدان، الذي ترجم إلى اللاتينية في القرن الثامن عشر، وكان مرجع كثير من علماء الغرب.

وهكذا يتجلى فضل العرب في هذا العلم، يقول العلامة جوستاف لوبون «ويكفى أن نشير مع ذلك إلى ما حققه العرب في الجغرافيا لاثبات قيمتهم العالية، فالعرب هم الذين عينوا بمعارفهم الفلكية مواقع الأماكن تعيينا مضبوطا في الخرائط، فصححوا بذلك أغالط علماء اليونان، والعرب هم الذين نشروا رحلاتهم الممتعة عن بقاع العالم التي كان يشك الأوروبيون في وجودها، والعرب هم الذين وضعوا الكتب الجغرافية التي جاءت ناسخة لما تقدمها، فاقترنت أمم الغرب عليها وحدها قرونا كثيرة^(١).

١٣ - في علم الاجتماع:

يبحث علم الاجتماع أو السوسيولوجيا، عن أحوال الجماعات والشعوب وما تنصف به في محافلها ومعايشها، وأعيادها ومواسمها، وما إلى ذلك أو هو يبحث عن عوامل تكوين الشعوب والأمم وتطورها ونضجها وقوتها، ثم ما يعثرها من عوامل الضعف والانحلال وما يتصل بذلك.

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص ٤٩٩، وراجع الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري للاستاذ آدم منتر ١٢/٢.

وسواء أردنا من علم الاجتماع المعنى الأول أو الثانى، فإن العرب لهم فيه القدح المعلى، فكتب الرحلات والخطط مليئة بذكر أحوال الأمم، ووصف معاشها وعاداتها وطرائفها في ذلك.

وأشهر من كتب في هذا الميدان المسعودى، في كتاب «مروج الذهب» إذ شرح فيه أحوال الأمم والآفاق لعهد، وذكر نحلهم وعوائدهم، وتعرض لكثير من طرائفهم.

وابن حوقل الذى يقول: إنه وصف أقاليم البلدان، وبين الغامر منها والعامر، ومالها من قوانين، ووجوه الأموال والجبايات والمجالب والتجارات؛ وأبو الريحان البيرونى صاحب كتاب «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مردولة» وقد برز البيرونى كأكبر شخصية علمية إبان النصف الأول من القرن الخامس الهجرى، إلی حد أن اطلق جورج سارطون - وهو مؤرخ تاريخ العلوم الشهير - على النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى اسم «عصر البيرونى» وقد انتهى البيرونى من تأليف كتابه عام ٤٢٣هـ - ١٠٣١م. ويعد الكتاب وثيقة تاريخية اثنوجرافية؛ حيث إن البيرونى لم يدرس طبيعة هذه البلاد وأحوال سكانها فحسب بل درس كذلك لغتها وآدابها في مختلف بيئاتها، ووقف بنفسه على رسومها وتقاليدها، وهو فيما يكتبه عنها يعتمد على مشاهدته بنفسه وسمعه بأذنيه أكثر مما يعتمد على ماقرأه.

ووصف ابن بطوطة في رحلته الشهيرة «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» مشاهدته من أحوال الشعوب التى زارها وعاداتهم.

وعبدالرحمن بن خلدون في مقدمته الشهيرة، أربى على الغاية في عوامل تكوين الجماعات وتطورها ومايعتريها من عوامل القوة والضعف، والبقاء والانحلال، وقد سبق أوروبا في كثير مما عرفت في العصر الحديث من نظريات، ومن ثم كان هو المؤسس لعلم الاجتماع.

يقول الأستاذ (ت. ج دي بوى) الأستاذ بجامعة أمستردام. وصاحب كتاب «تاريخ الفلسفة في الاسلام»: إن المؤرخين القدماء لم يورثونا التاريخ علما من العلوم، يقوم على أساس فلسفى، فمثلا كانوا يعللون لعدم بلوغ الانسانية منذ زمان بعيد درجة أعلى مما بلغته في المدينة بالاستناد الى حوادث أولية كالزلازل والظوفان ونحوها، ومن جهة أخرى كانت الفلسفة المسيحية تعتبر التاريخ بوقائعه تحقيقا أو تمهيدا لمملكة الله على الأرض، ثم جاء ابن خلدون فكان أول من حاول أن يربط بين تطور الاجتماع الانسانى وعلمه القريبة، مع حسن الادراك لمسائل البحث وتقديرها مؤيدة بالأدلة المقنعة، فقد نظر فى أحوال الجنس والهواء ووجوه الكسب، وعرضها مع بيان تأثيرها في التكوين الجسمى والعقلى في الانسان والمجتمع».

وقال الأستاذ «فارد» الأمريكى في كتاب «علم الاجتماع النظرى» «كانوا يظنون أن أول من قال وبشر بالحتمية في الحياة الاجتماعية هو «مونتسكيو» أو «فيكو» في حين أن ابن خلدون كان قد قال ذلك، وأظهر تبعية المجتمعات لقوانين ثابتة قبل هؤلاء بمدة طويلة». وقال أرنولد توينبى في كتاب «دراسة في التاريخ»: «ابن

خلدون من العباقرة، وفي مقدمته دلائل ساطعة على سعة النظر، وعمق البحث، وقوة التفكير؛ ثم يقول وهو في المقدمة التي كتبها لتاريخه العام قد أدرك وتصور، وأنشأ فلسفة التاريخ، وهو بلا شك أعظم عمل من نوعه، خلفه أى عقل في أى زمان ومكان».

١٤ - في الاختراعات :

لقد سبق العرب غيرهم إلى اختراع طريقة الكتابة بالحروف البارزة الخاصة بالعميان، اخترعها على بن أحمد بن يوسف بن الخضر المشهور بزين الدين الأمدى (ت ٧١٤هـ / ١٣١٤م) وكان قد فقد بصره فى أول عمره، فكان كلما اشترى كتابا لخزانة كتبه لف ورقة على شكل حرف من الحروف، ولصقها في الكتاب، وكانت هذه الحروف هي التي يستعين بها على معرفة ثمن الكتاب^(١).

وسبقت العرب الأوروبيين إلى الطيران، وقد حاوله عباس بن فرناس حكيم الأندلس، وهو أول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة، وأول من فك الموسيقى ووضع الآلة المعروفة بالمثقال ليعرف بها الأوقات على غير مثال، ومثل في بيته السماء بنجومها وغيومها وبروقها ورعودها تمثيلا يخيل للناظر أنه حقيقة^(٢).

وسبقت العرب إلى معرفة الطباعة فالف أبوبكر القدسي

(١) الأعلام: ٤ / ٢٥٧ وفي المجلد السادس من مجلة «المقتبس» بحث لأحمد زكى باشا قال فيه: إن زين الدين الأمدى سبق «براييل Louis Braille» إلى اختراع طريقته في الكتابة بنحو ستمائة سنة، لأن براييل الفرنسي اخترع طريقته في نحو سنة ١٨٥٠م.

(٢) المقتبس لابن حيان ١٤٤، والمغرب في حلى المغرب ٣٣٣. وفي مجلة المقتبس ١٦٥: ٦ بحث لأحمد تيمور باشا قال فيه: «لا يغض من اختراع ابن فرناس - الطيران - تقصيره فيه عن الشاؤ البعيد، فذاك شان كل مشروع في بدايته».

الأندلسي كتابا في الخواص وصنعة الامدة وآلة الطبع غريب في معناه، وكان عبدالرحمن بن بدر من وزراء الناصر ومن أهل المئة الرابعة، «ينفرد بالولايات فتكتب السجلات في داره ثم يبعثها للطبع فتطبع وتخرج اليه فتبعث في العمال وينفذون على يديه»، أى أن الأندلسيين عرفوا الطبع لا بالحروف قبل مخترعه المشهور «جوتنبرج» الألمانى بأربعمائة سنة .

وقال المؤرخ جوتيه: إن العرب عرفوا طريقة عمل التجليد الصناعى ولم تعرف أوروبا سر هذه الصناعة إلا في النصف الأول من القرن السادس عشر، وأدخلوا على أوروبا الورق المعمول من القطن والورق الرخيص الثمن؛ وكان الناس من قبل يكتبون على البردى وهو غال جدا، وكانت معامل «شاطبة» في أسبانيا تصدر بضاعة الورق إلى أوروبا الغربية، بينما كانت أوروبا الشرقية تبتاع ورقها من بلاد الشرق الأدنى مباشرة، على مايشهد لذلك اسم الورق الدمشقى «شارتا داماسينا» صنع الورق من الحرير في سنة ٦٥٠م في سمرقند وفارس، ثم استبدل يوسف بن عمرو سنة ٧٠٦م الحرير بالقطن ومنه الورق الدمشقى على ما ذكره مؤرخو اليونان .

ولقد أقام الوزير الفضل بن يحيى البرمكى الصناعة الأولى للورق في بغداد سنة (١٧٨هـ / ٧٩٤م) وكذلك انتشرت صناعة الوراقة في مصر في عهد الفاطميين وكانت تشمل صنع الورق ونسخ الكتب وتجليدها، وانتشرت في مصر محلات الوراقين وكان ورق مصر يعرف بالمنصورى كذلك أقيمت مصانع للورق على مثال

مصانع سمرقند في دمشق وطبرية بفلسطين وطرابلس بالشام^(١).
ونهب العرب في فارس والأندلس وصقلية وأفريقية لاستثمار
المعادن يستخرجونها من مناجمها، ويحسنون طرقها والانتفاع بها،
واستخرج الأندلسيون من مناجمهم الزئبق والتوتيا والحديد
والرصاص والفضة والذهب؛ واستثمر العرب المناجم فاستخرجوا
الحديد في خراسان، والرصاص في كرمان، والقار والنفط وطينة
الأواني الصينية ورخام طوريس؛ والعرب أول من استعمل الحمام
الزاجل في خدمة البريد ونقله وبخاصة الأخبار السرية، ومن ثم اقتبس
الصليبيون هذا النظام وأدخلوه أوروبا.

تقول الدكتور «سيجيريد هونكة» إن أوروبا تدين بالفضل
للعرب بل للشرق بمعرفة النباتات المفيدة للطعام مثل الخيار والقرع
والخرشوف والسبانخ والبطيخ والشمام والليمون والخوخ...
وأخذت أوروبا عن العرب طرق الري حيث كان العرب ماهرين في
هذا الفن منذ أقدم العصور.

حتى النظافة والاستحمام وغسل الثياب واستعمال العطور
والزينة قد أخذتها أوروبا عن المسلمين. تقول الدكتور «سيجيريد
هونكة» وهناك عادة هامة بالنسبة للعربي احتفظ بها الأوربي ألا وهي
عادة الاستحمام؛ إذ إنه لما زار الطرطوشي^(٢) بلاد الفرنج ولاحظ
ماهم عليه في هذا، قال إنه لم يشاهد في حياته أقدر منهم لا

(١) سيجريد هونكة: فضل العرب على أوروبا ترجمة فؤاد حسنين، ص ٢٩-٣٥.

(٢) الطرطوشي: هو محمد بن الوليد بن محمد بن خلف القرشي الفهري الأندلسي (٤٥١-٥٢٠هـ/
١٠٥٩-١١٢٦م) أديب، من فقهاء المالكية من أهل طرطوشة بشرقي الأندلس. من كتبه: سراج
الملوك، و«التعليقة» في الخلافيات. (الأعلام ١٣٤: ٧).

يغتسلون الا مرة أو مرتين كل عام وبالماء البارد، أما ملابسهـم فلا يغسلونها بعد أن لبسوها لكيلا تتمزق. ولما اندلعت نيران الحروب الصليبية وأقبل الصليبيون على الشرق فشاهدوا الحمامات في كل مكان، وحرص المسلمين على الاستحمام والتطهر والتنظيف عند كل صلاة وأدركوا أثر الحمامات بما فيها من وسائل الراحة والنظافة، فهاموا بها كما هام أولئك الغربيون الذين شاهدوها في أسبانيا وصقلية فألحوا جميعهم في ادخالها إلى أوروبا رغما من المعارضات الشديدة.

وفضل العرب على المرأة وزيتها وأناقتها واضح فشهرة الشرق في البخور والعطور واعدادها قديمة جدا. وكان الرجال المسلمون اقتداء بالرسول عليه الصلاة والسلام يتزينون باطلاق اللحية فاقتبس ذلك الصليبيون أيضا وأصبحت عادة مستحبة عند الغربيين.

١٥ - في الفنون والمعارف الصناعية :

اقتبس الغرب أصول في عمارته عن العرب، ويتجلى في أسبانيا على الخصوص تأثير العرب المعماري العظيم^(١) وفي مدينة واست في شمال فرنسا بوابة نقلت زخرفة عقودها عن بوابة الفتوح بالقاهرة؛ وكذلك الحال في بوابتي باريه له مونيال « وشارليو » في أواسط فرنسا فان الناظر اليهما يهيء اليه أنه أمام بوابة في المدن المغربية الاسلامية، وقد تأثرت العمارة الأوربية في العصور الوسطى تأثرا بالغا بالتقاليد المعمارية الاسلامية العربية؛ وكانت أولى المناطق التي ظهرت فيها قوة هذا التأثير هي شمال أسبانيا منذ أوائل القرن الرابع

(١) جوستاف لوبون : حضارة العرب، ص ٥٧٢ - ٥٧٤.

الهجرى في مقاطعات ليون وقشتالة .

وقد أجمع الباحثون على أن معظم ما ابتكرته قرطبة في فن العمارة، هي طريقة عمل الأقبية التي تقوم على عقود متقاطعة وأضلاع ظاهرة، وهذه الطريقة تحل المعضلة الأساسية في العمارة، وهي عمل الأسقف، وذلك بالطريقة نفسها التي اتبعت في العمارة القوطية في أوربا بعد ذلك بقرنين من الزمان .

واحتل الخط الكوفي مكانة ممتازة بين الموضوعات الزخرفية العربية وقد عبر مظهره البديع وجماله الفنى أنظار العرب والمسلمين وشاركهم الأوروبيون في ذلك مشاركة لا تقتصر على امتاع النظر بل في متابعة تطوره واقتباس ما أوجبه هذا التطور من روح فنية تركز على التناسق في التكرار والاتزان في التماثيل .

وكانت الفكرة الزخرفية هي وحدها التي أوحى إلى الفنان الأوربي منذ القرن الرابع الهجرى فكرة الاقتباس من حروف العربية وتسجيلها بالحفر على تيجان الأعمدة في الكنائس وعلى عقود بواباتها أو بالتصوير على صفحات الانجيل ولوحات القديسين .

والأمثلة على ذلك عديدة نجدها في اليونان على لوحة رخامية من احدى الآثار البيزنطية في أثينا؛ وفي بلدة « كالمانا » باليونان توجد كنيسة للقديس خرابمبوس وبها زخارف كوفية بديعة؛ وفي إيطاليا توجد زخرفة جميلة بالخط الكوفى المورق على باب مقبرة مدينة كانوسا .

وفي أسبانيا تعددت الأشكال وتنوعت فعلى افريز مذبح من كنيسة أوفيدو Oviedo حاول النحات أن ينقل عليه البسمة كاملة .

وفي فرنسا نجد الكتابة الكوفية مسجلة في كنائس عدة من بينها كاتدرائية بوردو وكنيسة القديس بطرس في ريد وكاتدرائية البوى في وسط فرنسا وقد بنيت في الربع الثاني من القرن السادس الهجرى، وتظهر هذه الكاتدرائية بمجموعة قبابها وتصميم مقرنصاتها كأنها بناء اسلامي عربي المظهر والتكوين .

وقد انتشرت في أسواق أوروبا التحف الفنية من خزف وفخار وزجاج وخشب وعاج ومعدن والأباريق والصحون والمشكاوات والمسارج والمباخر والمقاصير ولقيت رواجا كبيرا وأقبل على شرائها الملوك والأمراء والأثرياء حتى رجال الدين فاثارت الغيرة عند الصناع الأوروبيين وحفزتهم على محاولة محاكاتها سواء من حيث أساليب الصناعة أو طرز الزخرفة .

والذى لا شك فيه أن وفرة استيراد أوروبا للتحف الاسلامية من مختلف المواد ومنذ بداية الحروب الصليبية قد تفتح الطريق أمام تطور الفنون والصناعات الأوربية تطورا كان من نتيجته نموها نموا باهرا بحيث أصبح انتاج التحف الفنية من مقتضيات عصر النهضة الأوربية؛ ولقد اشتهرت مدينة بلنسية بصناعة الخزف ذا البريق المعدنى الذى امتازت به صناعة الخزف العربى، كذلك اشتهرت به مالقة، وكانت شهرة خزف مدينة بلنسية^(١) قد جعلت كبار الأمراء فى ايطاليا وفرنسا يوصون مصانع المدينة بصنع أوان خاصة بهم تحمل أسماءهم وشعاراتهم، واشهر نموذج لصناعة الخزف المطفى

(١) هـ. كريستى: تراث الاسلام، ص ١٢٦ .

بالميناء الاسلامية هو الاناء الذى وجد في قصر الحمراء والذي يبلغ ارتفاعه متر و ٣٥ سم ويظهر فيه الابداع الاسلامي^(١).

ومن اسبانيا اقتبس الايطاليون أسلوب الخزف المعدنى البراق ونشأت في مدينة جوبيو Jubbio مصانع نهضت بهذه الصناعة نهوضا كبيرا؛ كذلك قلد الخزافون الايطاليون صناعة الخزف الاسلامي بطريقة الرسم بالحفر وكانت هذه بداية لاشتقاقات أخرى من أساليب صناعة الخزف عند المسلمين عاونت معاونة كبيرة على ازدهار هذه الصناعة في عصر النهضة الأوربي .

وقد ذاعت في أوروبا العصور الوسطى شهرة المنسوجات الاسلامية ودور الطراز التي كانت منتشرة في البلاد الاسلامية العربية والتي كانت تنتج من المنسوجات أنواعا فاخرة متموجة الألوان أو منقوشة بخيوط الذهب والفضة .

وأخذت مصانع النسيج فى أوروبا تعمل على تقليد المنسوجات الحريرية الفاخرة وكان هذا التقليد نتيجة مصادر ثلاثة : أولها مصدر مباشر نتيجة استيراد الملوك والأمراء للأقمشة الفاخرة من بلاد الشرق الاسلامي ، وثانيها ناشيء عن استمرار المراكز الصناعية الاسلامية في انتاجها فترة طويلة من الزمن وفقا للتقاليد الاسلامية بعد خضوعها للحكم المسيحي في الأندلس وخاصة في صقلية التي كان تأثيرها كبيرا على المدن الايطالية ومصانع النسيج فيها وثالثها مصدر غير مباشر استتبع تأثر المصانع البيزنطية بالأساليب الاسلامية وانتاجها أقمشة تحمل الطابع العربى والتي راجت رواجا كبيرا في أوروبا .

(١) جوستاف لوبون : حضارة العرب ، ص ٥١٧ .

ومن الأمثلة البارزة على التأثيرات العربية في مجال النسيج تلك العباءة التي نسجت في صقلية للملك روجر الثاني (في سنة ٥٢٨هـ / ١١٣٤م) أى بعد انقطاع الحكم الاسلامي في الجزيرة، وقد نسجت هذه العباءة خصيصا لكي يرتديها الملك في حفل تتويجه، وهي محفوظة حاليا في متحف فينا، وزخارفها مشتقة من الزخارف العربية، فضلا عن أنه نسجت عليها كتابة باللغة العربية سجل فيها تاريخها الهجرى وعبارات التبجيل والدعاء للملك وفقا للتقاليد الاسلامية.

وعرفت أوروبا الحرير « الأطلس » وسمته Atlas عن العربية، وكذلك عرفت نوعا من القماش العربى يصنع من شعر الماعز اسمه « مخبر » فسمته Mohair عن العربية أيضا والخميل Gamlet وغير ذلك^(١).

ولم يختصر أثر العرب علي تزويدأوروبا بأفخر أنواع الأقمشة وإنما تعداه إلى التأثير على طريقة الحياة ذاتها، فيقول العلامة درابر^(٢): إن أوروبا لتدين للعرب بكثير من وسائل الرفاهية التي اكتسبتها عنهم، لقد علمونا فائدة المداومة على تغيير الملابس الداخلية القطنية والكتانية وغسلها، وهي لا تزال تستعملها نساؤنا بأسمائها العربية حتى الآن، ومن أمثلة ذلك قميص Gamice وجوبه . Jupe

(١) معجم اكسفورد اللغوي التاريخى .

A. New English Dictionary on Historical Principles: oxford

(٢) جون درابر : تطور أوروبا الفكرى : ٣٣ / ٢ .

أما السجاد وهو الآن ضرورة لا غناء عنها، فأتى إلى أوروبا عن طريق الشرق باعتباره من كماليات الموسرين الذين يتذوقون الأشياء الجيدة، وقد اتخذهُ الأوروبيون في بادئ الأمر تحفاً تكتنز أكثر من اتخاذهم له سجادة يفترش للاستفادة منه، وتعلم الصنّاع الأوروبيون من المسلمين كيفية نسج السجاد المخمل (ذو الوبر)^(١).

وعن طريق العرب أيضاً عرفت أوروبا المِرايا الزجاجية ذات الغشاء المعدني واستغنت بها عن المِرايا التي كانت تصنعها من البرنز أو الحديد المصقول^(٢).

(١) أ. هـ. كريستى: تراث الإسلام، ص ١٣٧-١٣٩.

(٢) أول ديورانت: قصة الحضارة ٤/ ٦١٣.

الفصل الثالث

- الثقافة الاسلامية فى الناحية التشريعية .

- بين الماضى والمستقبل .

الثقافة الإسلامية في الناحية التشريعية

التشريع الإسلامى تشريع متكامل ينظم جميع نواحي الحياة الروحية والمادية ووضع لكل واقعة أيا كان نوعها حكما إما بالنص عليه أو بوضع الأمارات والدلائل التي ترشد المجتهدين اليه، فلم يكن التشريع الاسلامي قاصرا على النواحي الروحية معرضا عن الحقوق المادية والأدبية، ولم يكن تشريعا خاصا بأمة، بل هو دين عام لجميع البشر لا يختص به شعب دون شعب، وهو باق خالد لا ينسخ مدى العصور، يفسح المجال للترقى العقلى والعلمى دون حدود، وللرقى المادى والصناعى ضمن حدود الأخلاق؛ وهو فطرى في أخلاقه، مرن في تشريعه مع ثبات اتجاهاته وقواعده العامة، وأسس، حتى الدخول فيه لا يحتاج إلى شعائر وطقوس؛ فكل تفكير وتصرف يوافق القرآن والسنة تفكير مشروع؛ للناس أن يعملوا به مادام في المصلحة العامة والخاصة.

وبالبحث في التشريع الاسلامى يدرك للنظرة الأولى أن الأحكام التي شرعت للعبادات كانت مفصلة محددة محررة؛ فهي تتناول الجزئيات تناولا مبينا في الوضوء والتميم والحيض والنفاس والصيام والاحرام وما إلى ذلك من الشؤون التعبدية هذا التفصيل الواسع النطاق، الرحب الآفاق، لا تراه ولا تلمسه في المعاملات والدستوريات، والاقتصاديات، والأحكام المدنية والجنائية والسياسية، فقد اكتفى القرآن والسنة هنا، برسم الخطوط العريضة والكليات العامة، وتركها التفصيلات والتطبيقات للناس يجيلون فيها عقولهم بما يوافق مصالحهم ويكفل حاجياتهم.

فالعبادات لا مجال للعقول فيها، لأنها فرائض مفروضة من الله تعالى لا تزول ولا تتغير بالزمان والمكان، أما التشريع الذى يوجه الحياة، ومصالحها ويحكم في قضاياها وشؤونها، ويمشى مع الناس فيما يضطربون فيه ويتعاملون، فمن حق الناس أن يكون لعقولهم فيه مجال وتفصيل وبيان، ومن بين سنن الخلود والبقاء أن يكون مرنا متطورا مع المد الحضارى والخطو البشرى .

ولقد كان للفقه الاسلامى أمران معجزان مستمدان من الشريعة؛ أولهما: أن الفقه الاسلامي ينتصر وإن لم تنتشر اللغة العربية كمثل ماساد الفقه الاسلامي بالمذهب الشافعى في أندونيسيا وغلب الفقه الحنفى الهند وباكستان وغيرهما من بلدان لا تتكلم العربية .

وثانيهما: أن العقيدة الاسلامية تنتصر وإن انهزم المسلمون كما غلب السلاجقة المسلمين في القرن الحادى عشر، لكنهم أسلموا وغلب المغول المسلمين في القرن الثالث عشر ولكنهم أسلموا .

فالفقه الاسلامى في المعاملات أو العبادات أغنى كنوز الحضارة الاسلامية، وأبعدها أثرا في الأمة جيلا بعد جيل، لاتصاله بالقرآن والحديث في منابعهما الأولى، فهو الذى مكن للحضارة الاسلامية من البقاء بالهند والصين وروسيا وتركيا وأفريقية وأوربا وآسيا؛ وسيطرت مبادئه على نظام الأسرة، والملكية وحرية العقيدة، والأصول العامة للشريعة .

لقد هبأ هذا الفقه للعالم العربى أن يحمل رسالته في استبقاء شعلة الحضارة في عنفوانها أربعة عشر قرنا؛ فنقلت حضارة الأقدمين إلى المتأخرين، ووصلت طرفى التاريخ قديمة وحديثة، ونهلت من

حضارة أمته كل الشعوب، ولم يتعطل يوما واحدا عن التطبيق على وجه الأرض.

ولقد ساد الفقه العلوم العربية جميعا وتصدرها، لأن الحضارة الإسلامية كانت تهتف بها غريزتها، لتخليد ذاتها بالعلم، وكان للفقه منه أعلى مكان؛ إذ تمتزج فيه المثل العليا بما ينفع الناس، ويمكن الأمة أن تتطور، وتتشكل على أساس من العدالة والمشروعية؛ وقد شهد للفقه الإسلامي وأصالته وقوته وصلاحيته فطاحل العلماء في أوروبا من غير المسلمين فقد عقدت عدة مؤتمرات دولية بحث فيها الفقه الإسلامي ودرست بعض نظرياته؛ وفي المؤتمر الدولي للقانون المقارن المنعقد في مدينة «لاهاي» سنة ٢٩٣٢ يعلن الأستاذ «لامبير» Monsieur Lambert الفقيه الفرنسي الكبير تقديره العظيم للفقه الإسلامي؛ وأصدر المؤتمر قرارا إجماعيا بالآتي :

(أ) اعتبار الشريعة الإسلامية مصدرا من مصادر التشريع العام « القانون المقارن » .

(ب) اعتبار الشريعة الإسلامية حية صالحة للتطور .

(ج) اعتبار الشريعة الإسلامية قائمة بذاتها وليست مأخوذة من غيرها .

وكذلك فإن مؤتمر المحامين الدولي المنعقد في «لاهاي» سنة ١٩٤٨ والذي اشترك فيه ثلاث وخمسون دولة جاءت قراراته معترفة بدورها بما في التشريع الإسلامي من مرونة وأهمية، موصية اتحاد المحامين الدولي بأن يقوم بتبني الدراسة المقارنة لهذا التشريع والتشجيع عليها؛ بل إن أساتذة القانون في العالم - وقد ألفوا جمعية

لهم- لم يجدوا من يسندون إليه الرئاسة الشرفية لجمعيةهم الا الفقيه الحنفى محمد بن الحسن (١٣٢ / ١٨٩ هـ) واعتبروه أبا للمشتغلين بالقانون الدولى في العالم أجمع وألفوا باسمه جمعيه خاصة تبحث ماكتبه وقالوا عنه^(١) : « إنه خليف بأن يأخذ مكانه الحق بين رواد القانون الدولى العالميين » وفي سنة ١٩٥١ عقدت شعبة الحقوق من المجمع الدولى للقانون المقارن مؤتمرا للبحث في الفقه الاسلامي في كلية الحقوق بجامعة باريس تحت اسم « اسبوع الفقه الاسلامى » ودعت إليه عددا من المستشرقين وأساتذة القانون في الدول الغربية والاسلامية، وقد حاضر الأعضاء في خمسة موضوعات فقهية، حددها مكتب المجمع الدولى للقانون المقارن وهى :

١- اثبات الملكية .

٢- المسؤولية الجنائية .

٣- الاستمساك بالمصلحة العامة .

٤- تأثير المذاهب الاجتماعية بعضها في بعض .

٥- نظرية الربا في الاسلام .

وخلال المحاضرات وقف نقيب المحامين في باريس فقال : « أنا لا أعرف كيف أوفق بين ماكان يحكى لنا عن جمود الفقه الاسلامى ، وعدم صلاحيته كأساس للتشريع يفى بحاجيات المجتمع العصرى المتطور ، وبين مانسمعه الآن فى المحاضرات ومناقشاتهما ، مما يثبت خلاف ذلك تماما ببراھين النصوص والمبادئ » ، كما وقف غيره من رجال القانون الفرنسى ، ورجال الاستشراق ، وأشادوا

(١) من نشرة سكرتارية هذه الجمعية للمعاهد التعليمية فى العالم .

بالفقه الاسلامى ، وأنه صالح لجميع الأزمنة والأمكنة .

وفي ختام المؤتمر ، وضع المؤتمر بالاجماع القرار الآتى :

« . . . نظرا لما ثبت للمؤتمرين من الفائدة المحققة التى
أتاحتها المباحث التى عرضت فى خلال أسبوع « الفقه الاسلامى »
ومادار حول هذه المباحث من مناقشات أثبتت بجلاء أن الفقه
الاسلامى يقوم على مبادئ ذات قيمة أكيدة لا مرية فى نفعها ، وأن
اختلاف المبادئ فى هذا الجهاز التشريعى الضخم ينطوى على
ثروة من الآراء الفقهية ، وعلى مجموعة من الأصول الفنية البديعة التى
تتيح لهذا الفقه أن يستجيب بمرونة هائلة لجميع مطالب الحياة
الحديثة ، فإن أعضاء المؤتمر يعلنون رغبتهم فى أن يظل أسبوع الفقه
الاسلامى يتابع أعماله سنة فسنة » ، لقد أعلن رجال المؤتمر - وهم
أئمة التشريع العالمى وصفوة رجاله - هذه الوثيقة التى تشع تقديرا
واكبارا للتشريع الاسلامى الذى يستجيب بمرونة هائلة لجميع
مطالب الحياة الحديثة المتطورة ؛ ورغبوا فى أن يظل أسبوع الفقه
الاسلامى يتابع أعماله سنة فسنة ، ليقدم إلى الانسانية تلك الثروة
الفذة من الأنظمة الدستورية والتشريعية والاقتصادية .

إن تفوق التشريع الاسلامى على النظم العالمية أصبح حقيقة
علمية مقرر لدى رجال القانون والفقه الدولى ، يقول الدكتور على
بدوى عميد كلية الحقوق السابق^(١) بعد مقارنة الشريعتين الإسلامية
والرومانية ، وهى المصدر الأول لكل تشريع أوربى .

« إن القانون الرومانى يقوم على الشكلية التى تتطلب اجراءات

(١) مجلة القانون والاقتصاد ، العدد الخامس من السنة الأولى .

رسمية، وطقوسا معينة، هى المحور في جميع نظمها، على حين أن الشريعة الإسلامية تقوم على التجرد من الشكليات والبساطة في التعامل، ونية الفريقين في التعاقد وعلى روح العدالة الفطرية بين الناس».

ويقول الدكتور توفيق شحاته^(١): «... وإذا أردنا المقارنة من حيث قيمة النظم القانونية، وجدنا التشريع الإسلامى قد سبق التشريع الرومانى فى تقدير المبادئ العظيمة، ومنها مبدأ انتقال الملكية بمجرد الاتفاق، ومبدأ سلطان الإرادة، ومبدأ النيابة التعاقدية.

ويقول الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة^(٢): «إن الشريعة بنيت أحكامها على المساواة بين الأجناس وبين الناس في كل أحكامها، فلا فرق بين أبيض وأسود، ولا عربى وأعجمى، ولا ملون وغير ملون.

بينما قانون الرومان أول خواصه أنه للرومان وأن مافيه من حقوق لا تكون إلا للرومان، ومافيه من واجبات تكون على الجميع.

وأن الإسلام يسوى في أحكامه الإنسانية بين الرجل والمرأة، إلا ما يوجب النظام الاجتماعى من تفرقة جزئية ليست بكلية، فالإسلام يعترف للمرأة بالشخصية الإنسانية الكاملة، فلها الولاية على مالها، ولها الولاية على نفسها في حدود، لمصلحة المجتمع؛ بينما القانون الرومانى كان لا يعترف للمرأة بالشخصية الكاملة، ولا الشخصية الناقصة، فهى أمة في بيت أبيها، ثم تصير أمة في بيت زوجها.

(١) توفيق شحاته: النظرية العامة للالتزامات في الشريعة الجزء الأول، ص ٢٠١.

(٢) محمد أبو زهرة: الفقه الإسلامى والقانون الرومانى. القاهرة ١٣٨١ هـ، ص ٨-٩.

والإسلام يعترف بالولاية الكاملة لكل من بلغ الرشد، وكمل عقله، بينما قانون الرومان لا يعترف للرجل مهما اكتمل في سنه وقوته ورشده بأى حق مادام أبوه على قيد الحياة، فلا ولاية لانسان أبوه حى الا اذا منحه أبوه الولاية، هذا في الوقت الذى تقرر فيه الشريعة أن الولد ولو كان قاصرا ذمته منفصلة عن ذمة أبيه مع بقاءه في ولايته» .

ويقول الدكتور/ محمد يوسف موسى^(١): «... إن القوانين الأوروبية تنظر إلى الفرد باعتباره وحدة، وباعتباره العنصر الأهم في الحياة، لا باعتباره جزءا من المجموعة، وقد ترتب على شيوع هذه الفردية المطلقة التصرف، أن انهار العرف والخلق تحت وطأة الجموح الفردى، وسرروح هذه القوانين، أن الثورة الفرنسية— وهى التى قام على أساسها القانون الفرنسى الذى صدر عام ١٨٠٤م— كان هدفها تحرير الفرد مما كان ينوء به من قيود وأثقال في السياسة والقانون والحرية، فجاءت الثورة تقدس الحق الفردى، وبذلك حطمت روح التعاون الاجتماعى وأثرت هذه الروح في القوانين الأوروبية كافة. أما الشريعة الاسلامية، فقد منحت الحرية الفردية، ثم قيدتها بمصالح الجماعة ثم يقول: «... فلكل نظام غاية يهدف لها، فالقانون الوضعى غايته استقرار المجتمع الذى وضع له هذا القانون بتنظيمه وبيان حقوق وواجبات كل فرد فيما يختص بعضهم ببعض، وهى غاية نفعية محددة، فالقانون—مثلا— يقضى بسقوط الحق بالتقادم، كما يقضى لمن يضع يده على عقار لمدة خمس

(١) محمد يوسف موسى: الفقه الاسلامى، ص ٨١.

عشر سنة بملكيتها لهذا العقار، حتى ولو كان غاصبا مجاوزا ماتقتضى به قواعد الأخلاق في هذا الخصوص .

وبذلك يبعد القانون عن قواعد الدين والأخلاق، أما التشريع الاسلامى فشيء آخر، فهو يرمى الفرد والمجتمع، والانسانية عامة، فالمصالح العامة مقدمة على المصالح الخاصة، ودرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة، كما يقرر الامام الشاطبى .

فالتشريع الاسلامى وحدة منسقة متماسكة يؤيد بعضها بعضا، يصدر عن روح واعية فاهمة، فالاسلام يحرم المقامرة، فترى هذه الروح سائدة، فيحرم بيع الغرر، وذلك كببيع الطير في الهواء، والسملك في الماء قبل صيده، وبيع ماسينتج من الخضر أو الزرع من هذه الأرض، أو الحيوان الضال، كل ذلك نهى عنه الشارع، لأن فيه مخاطرة أو مقامرة من البائع والمشتري على السواء .

ويقول الدكتور عبدالفتاح عبدالباقي^(١): «إن الجرائم في القوانين يصحبها الجزاء، الا أن هذا الجزاء يكون دنيويا دائما، لأن واضع القانون لا يملك طبعا من أمر الآخرة شيئا، ومن ثم لا جناح على من يستطيع الافلات من هذا الجزاء» .

ويعقب الدكتور محمد يوسف موسى^(٢) فيقول: «أما القانون السماوى—وهو في أسمى صورته الفقه الاسلامى— فعلى غير ذلك فيما يختص بالجزاء، إنه يثيب ويعاقب في هذه الحياة وفي الدار الآخرة أيضا، والجزاء الأخرى أعظم دائما من الجزاء الدنيوى، ومن أجل

(١) عبدالفتاح عبدالباقي: نظرية القانون، ص ١٦-١٧ .

(٢) محمد يوسف: الفقه الاسلامى، ص ٦٩ .

ذلك يحس المؤمن بوازع نفسى قوى بضرورة العمل بأحكامه، واتباع أوامره ونواهيه، ولو أمكنه التفلت من الجزاء فى هذه الدنيا، وليس كهذا باعثا على اتباع التشريعات التى تستند إلى كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، والتشريع الذى يستند إليه الدين هكذا يقصد صلاح الفرد والمجتمع، وهذه غاية نفعية بلا ريب، بيد أنه يريد بناء مجتمع مثالى نقى، مما لا ينافى الدين والأخلاق، ولذلك لا يمكن أن يقر شيئا ينافى شيئا منهما، كما أنه لا يقصد فقط الى بناء مجتمع سليم، بل إلى سعادة الفرد والمجتمع والبشرية كلها فى هذا الدار وفى الدار الأخرى أيضا، كما يهدف إلى احسان قيام الانسان بواجبه نحو نفسه وإخوانه فى الانسانية، ونحو الله تعالى بعبادته حق عبادته...» .

وفقهاء المسلمين، بما عرف عنهم من عمق البحث واتساع نطاقه، تناولوا بالدراسة تنظيم علاقة الدولة الإسلامية مع غيرها من الدول؛ ويتعرض كتاب الخراج لأبى يوسف، وكتاب «الجهاد» للطبرى لمسائل تدخل فى نطاق القانون الدولى، وينفرد كتاب «السير الكبير» لمحمد بن الحسن الشيبانى، بتخصصه فى شرح القواعد التى تنظم العلاقات الدولية فى الاسلام فى زمن الحرب، فهو يتضمن كل أصول الحرب وأحكامها، وقد سبق به الشيبانى جهابذة القانون الدولى الغربيين، مثل جروسيوس Gortius ، وفيتوريا Vittoria ، وسريز Saury

وقواعد القانون الدولى فى الاسلام، مستقاه من آيات الله

البيانات، وسنة رسوله عليه السلام، فأول مصادرها: الكتاب الكريم، ثم السنة المطهرة، دون أن نغفل أهمية المعاهدات التي عقدها الخلفاء، والأوامر والوصايا التي كانوا يبعثون بها إلى أمراء الجيوش، وكذلك اجماع الفقهاء، باعتبارها مصادر مكملّة فاذا استعملنا التعبيرات التي يعرفها القانون الدولي المعاصر، أمكننا أن نقول إن مصادر القانون الدولي في الاسلام هي:

أولاً: السلطة:

ونقصد بها سلطة العقيدة باعتبارها مصدر الالتزام بالقواعد التي وردت في الكتاب والسنة.

ثانياً: المعاهدات والمواثيق:

التي تبرم بين الدولة الاسلامية وبين غيرها من الدول.

ثالثاً: الفقه:

ويندرج تحته، الفتاوى والتعليقات، والآراء المستنبطة بالاجتهاد أو القياس.

رابعاً: العرف:

وهو في القانون الدولي الوضعي، من أكبر المصادر وأغزرها، مع أنه في الاسلام مصدر ثانوي، الا أن له أهميته وقيّمته.

وتتضمن طبيعة الدعوة الإسلامية، صبغة خاصة على القانون الدولي، بحيث يمتدّد مفهومه، بعض الشيء، عن القانون الدولي بمعناه المعروف، فالقانون الدولي - كما يعرفه رجال القانون - هو قواعد تنظيم العلاقة بين مجموعة من الدول، في الحرب وفي السلم،

بين مجموعة من الدول المستقلة، المكتملة السيادة التي تترابط عرفاً أو اتفاقاً على قدم المساواة، وعلى أساس التبادل المطلق، وهو يقوم على مبدأ الاقليمية فينبسط سلطان الدولة - بحسب الأصل - على أرضها - ومافوقها، وماتحتها، دون أن يمتد إلي ماوراء ذلك .

هذا المفهوم، لا تعرفه الشريعة الإسلامية، إذ إن الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، تقوم على اعتبار شخصى انساني، أكثر من أى اعتبار اقليمى، إذ لا يتصور بالنسبة لها أن تكون الحدود الاقليمية عامل تفرقة بين الدول المسلمة، ويوجب الاسلام على أتباعه الدعوة إليه، والغاية الكبرى من ذلك، هو أن يعم ربوع الأرض جميعاً، حتى يسود السلام . وتعلو كلمة الله تعالى .

أخذ الاسلام بمبدأ التبادل، وطبقه تطبيقاً كاملاً، معطياً بذلك أحسن المثل للدول الحديثة . قال الله تعالى : ﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص . فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم . واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ « سورة البقرة : الآية ١٩٤ » .

يقول الأستاذ الشيخ محمد عبده في تفسير هذه الآية^(١) : (إن الله قد بين قاعدة عظيمة، معقولة، وهى أن الحرمات، أى مايجب احترامه، والمحافظة عليه، يجب أن يجرى فيه القصاص والمساواة، وقد استدل الامام الشافعى، بالآية على وجوب قتل القاتل بمثل ماقتل به، بأن يذبح اذا ذبح ويخنق اذا خنق، ويغرق اذا أغرق، وهكذا مثل ذلك في النصب والاتلاف، والقصد أن يكون الجزاء على قدر

(١) تفسير المنار : ج ٢، ص ٢١٢ وما بعدها .

الاعتداء بلا حيف، ولا ظلم».

وأزيد على هذا، ماهو أولى بالمقام، وهو المماثلة في قتال الأعداء، كقتل المجرمين بلا ضعف ولا تقصير، فالقاتل بالمدافع والقذائف النارية أو الغازية السامة، يجب أن يقاتل بها، وهذه الشروط والآداب لا توجد الا في الإسلام، وكذلك قال الله تعالى: بعد شرح القصاص والمماثلة «واتقوا الله» فلا تعتدوا على أحد، ولا تظلموا في القصاص بأن تزيدوا في الايذاء».

الإسلام: كما تدل عليه تسميته، دين أمن وسلام، يقوم على أساس الود والتسامح، لا يجيز الحرب الا في حالات خاصة محدودة، بحيث تعتبر فيما عداها جريمة، تسبق في ذلك المؤلف في الدول الغربية بأحقاب طويلة.

كتب الأستاذ هاك S.A. Haque في كتيب، نشر في لاهور بالهند، عام ١٩٣٢، عن مساهمة الإسلام في السلام العالمي، يقول: «إن الأمم تبذل الكثير من الجهود، وتعقد المؤتمرات، لمنع التسليح ومنع الحروب، أو للتقليل من فرص اعلانها، ولكن جهودها باءت جميعا بالفشل، وذلك لأن الدول، اذ تتعهد لا تقيدها نفسها بالمعاهدة إلا حين تنعدم عندها الوسيلة لنقضها، حتى اذا ماتوفرت عندها القوة الكافية لذلك، أعلنت أن المعاهدة التي أبرمتها، وارتبطت ببندوها، حبر على ورق، ويقدم لنا التاريخ الكثير من الأمثلة على ذلك.

ولو طبقت أحكام الاسلام، فيما يتعلق بالحروب والجهاد، تطبيقا كاملا، لوجد العالم فيها جنته التي يبحث عنها بدلا

من الجحيم الذى هو مسوق اليه . ليطع كل منا دعوة الله تعالى التي يقول فيها: ﴿كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين﴾ «سورة البقرة الآية ٦٠» .

انتشر الاسلام بالدعوة، ولم يعتمد على القوة، يقول الله تعالى: ﴿لا إكراه فى الدين . قد تبين الرشد من الغي﴾ «سورة البقرة: ٢٥٦» .

يقول الامام الفخر الرازى فى «مفاتيح الغيب» تفسيراً لهذه الآية الكريمة: «إنه تعالى لما بين دلائل التوحيد بياناً شافياً قاطعاً للمعذرة، قال بعد ذلك: انه لم يبق بعد ايضاح هذه الدلائل، عذر للكافر، فى الاقامة على كفره، الا أن يقسر على الايمان، ويَجبر عليه، وذلك مما لا يجوز فى دار الدنيا، التي هي دار الابتلاء، اذ إن فى القهر والاكراه على الدين، بطلان معنى الابتلاء والامتحان، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً . أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ «سورة يونس: ٩٩» .

وقد استقر الرأى فى الإسلام، من أن الكفر وحده، ليس سبباً كافياً للقتال فلا يجوز قتال الرهبان، والنساء، وغيرهم ممن لا يد له فى القتال، فقد جاء فى صحيح مسلم عن بريدة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: «أغزوا فى سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، أغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا ولا تقتلوا الوليد، ولا أصحاب الصوامع» .

ولو كان القتال للحمل على الاستجابة إلى الدعوة، وطريقاً من

طرق نشرها حتى لا يوجد مخالف في الدين، لما ساغ استثناء هؤلاء، فاستثنأوهم دليل على أن الكفر وحده ليس سببا كافيا للقتال . وترتبا على ذلك، فإن علاقة الدول الإسلامية مع غيرها، إنما تبنى في أصولها، على أساس الود والسلم، باعتبار القاعدة في العلاقات الدولية، وقد تناول الفقه الإسلامي تنظيم التجارة وتبادلها، بين دار السلم ودار الحرب، فالإسلام يشجع على التجارة ويدعو المسلمين إلى أن يسعوا في الأرض .

وقد شجع الإسلام دخول غير المسلمين، دار الإسلام للتجارة فيها، ولغير المسلم الأمان أربعة شهور قابلة للتجديد، إذا لم تنته تجارته خلالها، كما له أن يطلب البقاء في دار الإسلام عاما على أن يدفع الجزية كذمي؛ ويقول السرخسي في «المبسوط» في أموالهم بعد نشوب الحرب «أموالهم صارت مصونة بحكم الأمان فلا يمكن أخذها بحكم الإباحة، بل إن الإسلام لحرصه على أموال التجار الذين دخلوا بعقد أمان يقرر أن التاجر المستأمن يستمر على ملكه، ولو عاد إلى دار الحرب وحمل السلاح محاربا المسلمين. يقول ابن قدامة في «المغنى»: «إذا دخل حربي دار الإسلام بأمان، فأودع ماله مسلما أو ذميا، أو أقرضهما إياه، ثم عاد إلي الحرب نظرنا فإن دخلها تاجرا أو رسولا أو متنزها، أو لحاجة يقضيها، ثم يعود إلى دار الإسلام فهو على أمانة في نفسه وماله، لأنه لم يخرج عن نية الإقامة بدار الإسلام فأشبهه الذمي ذلك إذا دخل لذلك، وإن دخل مستوطنا بطل الأمان في نفسه وبقي ماله، لأنه بدخوله دار الإسلام بأمان يثبت الأمان لماله، فإذا بطل في نفسه بقي في ماله، لاختصاص المبطل

بنفسه، فيختص البطلان به» .

وقد وضع الفقهاء قيودا هاما على تبادل الخدمات بين دار الاسلام ودار الحرب فلا يجوز تصدير المواد الحربية إلى دار الحرب، وإن اختلف الفقهاء في تحديد نطاقها، فاذا خرج التاجر الأجنبي على هذا التحريم، فلا يبطل البيع ولكنه يلزم باعادة بيع ما اشتراه من الممنوعات، قبل مغادرته دار الاسلام؛ وقد نصح أبو يوسف بأن يضع الامام مسلحات عند حدود دار الاسلام، تقوم بتفتيش التجار الأجانب، وتمنع تهريب المواد الممنوعة، كما لا يجوز للتاجر الأجنبي في دار الاسلام أن يتعامل جهرة، فيما تحرمه الشريعة الاسلامية كالخمر والخنزير.

وأجاز الحنفية، للمسلم دخول دار الحرب للتجارة، وخالفهم في ذلك المالكية، خشية أن يتعرض المسلم للشرك، وقال ابن حزم: إن على الامام ألا يجيز للمسلم دخول دار الحرب، الا للجهاد، أو حمل الرسائل إلى رؤساء الدول، وكما هو الحال في تجارة الأجنبي في دار الاسلام، يمتنع على المسلم أن يتاجر فيما هو ممنوع، أو أن يتعامل بالربا، كما يمتنع عليه أن يتاجر في الضار من النبات أو الحيوان، أو أن يحمل إلى دار الحرب ما يكون فيه تقويتها من الناحية الحربية، فالصلة قائمة اذن بين المسلم وغير المسلم سواء أقام هذا الأخير في دار الاسلام أم في داره، فقال صاحب البدائع: «ويسكنون في أمصار المسلمين. يبيعون ويشتررون، لأن عقد الذمة شرع ليكون وسيلة إلى اسلامهم، وتمكينهم من المقام في أمصار المسلمين أبلغ في هذا المقصود. وفيه أيضا منفعة للمسلمين بالبيع والشراء» .

سبق الاسلام أحدث ما ابتكره العقل البشرى من قواعد التفاهم الدبلوماسى، فالسياسة يدعون هذه الأيام إلى التعايش السلمى؛ ومعنى ذلك أن تعايش المذاهب السياسية والاجتماعية في سلام وحسن جوار، وهم يقولون في ذلك كثيرا، ويحققون منه قليلا، فأما الاسلام فلم يدع إلى التعايش السلمى بين المسلمين وغير المسلمين فحسب، بل دعا إلى مافوق ذلك من التعايش الوادى، الذي يتجاوز المسالمة إلى المودة والمصاهرة والاشتراك في القربات والدماء.

وسبق آخر، نسجله في القطاع الاجتماعى للاسلام، الذى لن تبلى على الأيام جده؛ فقد عرف نوعا من الضمان الاجتماعى، يرقى كثيرا عما تعرفه التشريعات الحديثة.

جاء في كتاب خالد بن الوليد لأهل الحيرة: «وجعلت لهم (والكلام عن النصارى) أيما شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنيا فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته، وعيل من بين مال المسلمين وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام؛ فإن خرجوا إلى غير دار الهجرة ودار الإسلام، فليس على المسلمين النفقة على عيالهم».

وذكر أبو يوسف في كتاب «الخراج»: «ولا تؤخذ الجزية من المسكين الذى يتصدق عليه ولا من أعمى لا حرفة له ولا عمل، ولا من ذمى يتصدق عليه، ولا من مقعد، والمقعد والزمن اذا كان لهما يسار، أخذ منهما، وكذلك الأعمى وكذلك المترهبون والذين فى الديارات، اذا كان لهم يسار أخذ منهم، وإن كانوا مساكين يتصدق عليهم أهل اليسار منهم لم يؤخذ منهم» والجديد في هذا النوع من

الضمان الاجتماعي، أن الدول الحديثة تمنح الضمان لأهلها، أما الاسلام، فإنه يمنح تأمیناً اجتماعياً لغير المسلمين، من العاجزين عن الكسب بأفة كالعمى والزمن، أو بسبب جائحة مالية تصيب الرجل فيفتقر بعد غنى، وعلى الحاكم المسلم أن ينظر في أمر المحتاج؛ فاما أن يكتفى باعفائه من ضريبة الدفاع وهي الجزية، واما أن يجرى بعد ذلك عليه رزقا يكفيه وعياله من بيت مال المسلمين.

رأينا فيما سلف من القول، أن القتال ليس أساس العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين حتى يسلموا، وأن التجارة وتبادل المنافع، بل المخالطة والمؤاكلة والمصاهرة، بين المسلمين والكتابيين مشروعة، فالسلام اذن هو الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم؛ وهذا طبيعي في دين لا ينشره أصحابه للتوسع الاقتصادي، دين ينفر من الاستغلال، ويحرم العدوان، ويشرع المساواة بين الناس ويجعل مقياس التفاضل بينهم التقوى والعمل الصالح.

وطبيعي أن يحرص الاسلام على نشر السلام، لأن في ذلك مصلحته، وأن ينفر من الأكره، لأنه لا يؤدي الى العقيدة الصحيحة، ولأن في الاسلام من الفضائل ما يعلن عن نفسه، لو خلى بين الناس وبين النظر إليه في أمن.

الأصل في العلاقة بين المسلم وغير المسلمين، هو المسالمة والمهادنة الا أن يصاب المسلمون بظلم فتحل لهم الحرب دفعا للظلم وذوداً عن حقوقهم، وليس ذلك الا تطبيقاً لفكرة الدفاع الشرعى التى تجعله المواثيق الدولية في كل العهود مبررا لاستعمال القوة.

ومادام القتال لا يحل الا دفعا للظلم، فلا يحل للمسلمين أن يكونوا هم البادئين بالعدوان، وتطبيقا لذلك أحل القتال اذا ما أخرج المسلمون من ديارهم^(١) بغير حق، وانتهاك ماعظم من حرّمات الله، ومحاولة فتنة المسلمين فيما يدينون؛ ويحدد القرآن الوقت الذي يجب أن يركن فيه المسلمون إلى السلم، ويكون ذلك بتحقيق الغاية من القتال، برفع الظلم، ورد الاعتداء والقضاء على الفتنة^(٢).

فاذا ما حل القتال، وتحقق سببه، حرص المشرع الاسلامي على تنظيمه تنظيما عمليا، بما يتفق وتعاليم الاسلام، تنظيما أخلاقيا، يليق بالمسلم الحق.

فأوجب- قبل البدء في الحرب- الدعوة إلى الاسلام، أو العهد، أو الحرب عن عطاء بن يسار، أن رسول الله ﷺ، بعث عليا بن ابي طالب رضى الله عنه مبعثا، فقال له: أمض ولا تلتفت، قال: يارسول الله، كيف أصنع بهم، قال: اذا نزلت بساحتهم، فلا تقتاتلهم حتي يقاتلوك، فان قاتلوك، فلا تقتاتلهم حتي يقتلوا منكم قتيلا، فان قتلوا منكم قتيلا، فلا تقتاتلوهم حتي تريهم اياه، ثم تقول لهم: هل لكم أن تقولوا لا اله إلا الله؟ فان قالوا: نعم، فقل لهم: هل لكم أن تصلوا؟ فان قالوا: نعم، فقل لهم هل لكم أن تخرجوا من أموالكم الصدقة؟ فان قالوا: نعم، فلا تبغ منهم غير ذلك، والله لأن يهدي الله على يدك رجلا، خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت.

ويستوجب الاسلام اعلان الحرب، ويمنع الغدر، قال الله

(١) انظر الآيات ٣٩-٤١ من سورة الحج.

(٢) انظر الآيات ١٩٠-١٩٣ من سورة البقرة

تعالى: ﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين﴾ «سورة الأنفال: ٥٨» .

فلا يجوز للمسلمين أخذ العدو على غرة. هذا المبدأ الأخلاقي لم يستطع القانون الوضعي أن يقرره إلا منذ سنين، بمقتضى مؤتمر لاهاى المنعقد عام ١٩٠٧، الذى أوجب ألا تبدأ الأعمال الحربية إلا بعد اخطار سابق لا لبس فيه، يكون اما في صورة اعلان حرب مسبب، أو في صورة من انذار نهائى يذكر فيه اعتبار الحرب قائمة بين الطرفين، اذا لم تجب الدولة الموجه لها الانذار طلبات الدولة التي توجهه .

ووضع الاسلام كذلك من القواعد ما يضمن تأمين المبعوثين والمفاوضين، كما أوجب العناية بالمرضى والجرحى، ومنع تعذيب العدو أو قتله غيلة، وهى أمور لم تنظم في القانون الوضعي بصفة كاملة، إلا بمقتضى اتفاقية جنيف، المبرمة عام ١٨٦٤، والمعدة بمعاهدة ١٩٠٦، ثم اتفاقية ٢٧ من يوليو ١٩٢٩ . ومع ذلك فان ماتقرره للمرضى والجرحى من حماية، أدنى بكثير مما يقرره الاسلام ذلك أن الاتفاقية المذكورة، مع اقرارها مبدأ حماية الجرحى والمرضى الذين يصابون في ميدان القتال، وضرورة العناية بهم، ورعايتهم، أيا كانت جنسيتهم، فان الجريح أو المريض الذى يقع في يد العدو يعتبر أسير حرب، مالم تتفق الدول المحاربة على معاملته معاملة أخرى .

ومن مفاخر الاسلام كذلك تنظيم المعاهدات، فالاسلام وهو حريص على الوفاء بالوعد، قرر صفة المعاهدة الالزامية، وضرورة

احترامها، وتنفيذ بنودها حتى النهاية، فهي نوع من العقد، فلها ما للعقد من القوة الملزمة لطرفيه ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا. إن الله يعلم ما تفعلون. ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا. تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة﴾ «سورة النحل: ٩١-٩٢».

والمعاهدات في الاسلام عموما، قصيرة لا تتضمن نصوصا تفصيلية، يختلف مضمونها حسب الغرض الذى من أجله أبرمت المعاهدات، فالمعاهدات الأولى كانت معاهدات دينية وسياسية، ثم ظهرت بعد ذلك المعاهدات الاقتصادية.

وقد فرق المسلمون بين المعاهدات الدائمة، والمعاهدات المؤقتة، ولا تنبىء هذه التفرقة على ما تتضمنه المعاهدة، ولكن على الطرف الآخر الذى تعقد معه هذه المعاهدة، فهي دائمة إن عقدت مع ذمى، وموقوتة إن كانت هدنة مع حربى وقد اختلف الفقهاء حول مدة المعاهدة، فذهب الحنفية والشافعية، الى أن معاهدة السلم مع غير المسلمين، لا يجوز أن تزيد مدتها على عشر سنين، وذلك قياسا على معاهدة الحديبية وذهب البعض إلى أن معاهدة الحديبية، لم تبقى عملا هذا القدر، فلا يجوز عقد معاهدة صلح مع غير المسلمين لمدة تزيد على ثلاث أو أربع سنوات، وذهب بعض الحنابلة إلى أنه يجوز للامام أن يبرم مع غير المسلمين معاهدة لمدة تزيد على عشر سنوات اذا اقتضت المصلحة، كما هو الحال عند ضعف المسلمين، وعدم قدرتهم على مواصلة القتال وانهاؤه مع العدو.

ونخلص من ذلك إلى أن الرأي في وقتية المعاهدة أو دوامها موكل إلى الإمام، يقرر فيه ما يكون أكثر ملاءمة لمصالح المسلمين .
 وإذا رأى الإمام اضرار المعاهدة بمصالح المسلمين، جاز له نقضها، واستئناف القتال، على أن يعلن ذلك جهره. ﴿ وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله ﴾ « سورة التوبة: ٣ » .

* * * *

لقد بحث المسلمون القانون الدستوري والاداري تحت اسم السياسة الشرعية والأحكام السلطانية أو ما يؤدي هذا المعنى، وقد صنفوا كتباً كثيرة في هذا المجال مثل كتاب « السياسة الشرعية في اصلاح الراعى والرعية » للإمام ابن تيمية الفقيه الحنبلى، ومثل كتاب « الأحكام السلطانية » لأبى الحسن البصري الشافعى المعروف بالماوردى .

وقد كان الكلام عن الخلافة أو رئاسة الدولة من مباحث الفقهاء، الا أنه لما اتسع فيه الكلام وأصبح الحديث فيه يتعلق بالعقيدة صار يدرس ويبحث في علم الكلام وصنف فيه ابن قتيبة كتابه « الامامة والسياسة » .

وقد تناول الفقهاء في كتبهم هذه نظام الحكم الاسلامى وقواعده وعلاقة الحاكم بالمحكومين وسلطة ولي الأمر على الأحكام .

بحث الفقهاء في القوانين الجنائية، ونصوا على أن الجنائية لا يتحمل مسؤوليتها غير الجانى، وهدمت النظام الذى كان سائداً في

الجاهلية، وتكلموا عن الجريمة والعقوبة وفصلوا القول في الجرائم التي عقوبتها محددة، والجرائم التي ترك الشارع فيها تقدير العقوبة للقاضي؛ وعرفوا العفو عن الجريمة وأثره في سقوط حق المجنى عليه وحق العامة، وسقوط العقوبة إلى غير ذلك، كما عرفوا المسؤولية التقصيرية، ومسؤولية المتبوع عن ما يرتكبه التابع.

والواقع أن الشريعة الإسلامية لا تشترط في المسؤولية الجنائية النص على الجريمة أو العقاب؛ وليس من المعقول أن يكون التشريع الذي جاء للخلود أن ينص على جرائم وعقوبات بأعينها ثم يقول (لا جريمة ولا عقوبة إلا بنص) وقد توسع علماء الشريعة في هذا الباب ومكنوا الحاكم من اتخاذ كل ما يراه مقوما للنظام مصلحا للمجتمع.

وقد عرض القرآن لجرائم مخصوصة لها أثر سيء في النظام العام، وفرض لها عقوبات مبينة وهي الجرائم التي ترجع إلى الجنابة على النفس والمال والعرض والنسب والعقل والدين والنظام العام.

وبالنسبة للقانون الخاص، سواء منه الدولي الخاص الذي يبحث في الموطن والجنسية ومركز الأجانب في الدولة وتنازع القوانين، أو ما ينظم علاقات وتصرفات الأفراد والجماعات المالية مما اصطلاح على تسميته بالقانون المدني^(١) وما يتصل به من القوانين التجارية والبحرية، أو ما ينظم أمر التقاضي بين المتخاصمين سواء الأفراد مع الدولة، كل هذا تناوله الفقهاء بتوسع واستفاضة وأوجدوا

(١) من المسلمات أن ثمة نقاط التقاء شتى بين قانون نابليون وبين مذهب مالك يختلفان فيها جميعا مع القانون الروماني ومع القانون الكنسي، وليس لقاؤهما وليد المصادفات وإنما هو على الأقل - وليد المجتمع العربي، الذي حكمه القانون الإسلامي طوال قرون طويلة، ووليد القوة العصرية التي تصاحب القواعد القانونية في التشريع الإسلامي، فتجعلها تلائم الزمان والمكان، في حين لم تجتمع أمة من الأمم أوروبا حتى مطلع القرن التاسع عشر على قانون عصري أو أية مجموعة قانونية تجرى على مقتضاها، فلم يوضع قانون لفرنسا إلا في أوائل القرن التاسع عشر، ولم يوضع لألمانيا قانون إلا في نهايته.

فيه من النظريات التشريعية ماهو جدير بالتقدير، وأن جل ماوصلت إليه الحضارات القانونية في هذا سبق إليه الفقه الاسلامي من نحو ألف عام .

فقد بين الفقهاء المسلمون قديما الحقوق والأموال والملكية وطرق التملك وتكلموا عن الملك التام والملك الناقص وأسباب الملكية في كل، وفرقوا بين ملك المنفعة وحق الانتفاع، ودرسوا العقود بعناية وعمق، وعرفوا المقاصة، والكفالة وحوالة الدين وحوالة الحق، كما تناولوا الشخص من ناحية أهليته وفرقوا بين أهلية الوجوب وأهلية الأداء، وتكلموا عن الذمة والشخصية الاعتبارية، كما تناولوا عوارض الأهلية، وعيوب الرضا في العقود، وفرقوا بين الاعسار والأفلاس، وتكلموا عن الوكالة العامة والخاصة، والمطلقة والمقيدة وكذلك تكلموا عن الولاية الذاتية والولاية المتعدية سواء في ذلك الولاية على النفس والولاية على المال، كما تكلموا عن الفضولي وحكم تصرفاته، كما تناولوا التضمين وهو مايقابل في الاصطلاح القانوني المسؤولية المدنية وجعلوا التعويض قسمين: تعويضا منصوبا عليه كالديات .

وتعويضا غير منصوب عليه وهو مايقدره الحاكم بنفسه، أو بواسطة نوابه من أهل الخبرة كقيم المتلفات المالية أو البدنية التي ليس للشرع فيها تقدير ويسمى (حكومة العدل) وقد نفوا المسؤولية حيث لا ضرر ولا اخلال بحق الغير .

والضرر الذي يترتب عليه التضمين في الفقه الاسلامي منه مايصيب الانسان في نفسه أو ماله أو شرفه أو سمعته كاتلاف عضو

أو مال وكالْقَذْف ونحو ذلك .

عرف القضاء منذ صدر الاسلام، فقد نصب الرسول نفسه في المدينة ليفصل في الخصومات بجانب ما يبلغه للناس عن ربه، وكانت طرق الاثبات عنده البينة واليمين وشهادة الشهود، والكتابة والفراصة والقرعة وغيرها؛ وكان الرسول يقول : (البينة على من ادعى واليمين على من أنكر) والبينة في الشرع اسم لما يبين الحق ويظهره، بمعنى أن المدعى ملزم باظهار ما يبين دعواه، فاذا أظهر صدقه باحدى الطرق حكم له ، فالحاكم عليه ان يحكم حسبما ظهر له من الحق، وأمَّا السرائر فيتولها الله .

ولما انتشرت الدعوة عين الرسول بعض أصحابه على القضاء، فقد أرسل عليا بن أبي طالب إلى اليمن ليقضى فيهم وقال : « اذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضى لأحدهما حتى تسمع كلام الآخر كما سمعت من الأول فإنه أحرى أن يتبين لك القضاء » . ويروى أنه عرضت على علي كرم الله وجهه قضية فقال : أقضي بينكم فإن رضيتم فهو القضاء، والا حجت ببعضكم عن بعض حتى تأتوا رسول الله ليقضي بينكم » . فلما قضى بينهم أبوا أن يتراضوا وأتوا الرسول أيام الحج وقصوا عليه ما حدث، فأجاز قضاء علي وقال : « هو ما قضى بينكم » .

وفيد قول علي : فإن رضيتم فهو القضاء والا حجت ببعضكم عن بعض « أن الطعن في الأحكام عرف عندهم وعمل به، اذ ما حدث إنما هو أشبه باستئناف الحكم أمام سلطة أعلى ممن أصدر

الحكم، كما يفيدُه قول علي: «حتى تأتوا رسول الله ليقضى بينكم»
فلجؤوهم للرسول لا باعتباره حاكم المسلمين أو المشرع وإنما
باعتباره قاضيا .

كان عمر بن الخطاب أول من عين من القضاة في الولايات
الاسلامية، وقد سن لهؤلاء القضاء دستورا يسرون على هديه في
الأحكام ويعتبر هذا الكتاب أساس علم المرافعات في القضاء، وبعث
بهذا الكتاب إلى أبي موسى الأشعري . وهاك نصه: (بسم الله
الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن
قيس^(١) . سلام عليك . أما بعد : فالقضاء فريضة محكمة، وسنة
متبعة، فافهم اذا أدلى اليك^(٢)، فانه لا ينفع تكلم بحق لانفاذ له .
واس بين الناس^(٣) في وجهك ومجلسك وعدلك حتى لا يطمع
شريف في حيفك^(٤) ولا ييأس ضعيف من عدلك البينة على من
ادعى واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين الا صلحا
أحل حراما أو حرم حلالا، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت
اليوم فيه عقلك، وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق، فان الحق
قديم، ومراجعة الحق خير من التماذى في الباطل؛ الفهم الفهم فيما
تلجلج^(٥) في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة، ثم اعرف الأمثال
والأشباه وقس الأمور بنظائرها واجعل للمدعى حقا غائبا أو بينة أمدأ
ينتهى اليه، فان أحضر بينة أخذ بحقه، والا وجهت القضاء عليه، فان

(١) هو اسم أبي موسى الأشعري .

(٢) أى: رفع لك الأمر وحيى به اليك .

(٣) أى: اعدل وساو .

(٤) الحيف: الظلم .

(٥) التلجلج: التردد في الكلام .

ذلك أجلى للعمى وأبلغ للعذر .

المسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجلودا في حد أو مجربا في شهادة زور أو ظنينا^(١) في ولاء أو قرابة؛ فإن الله سبحانه تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالبينات، وإياك والقلق والضجر والتأذى للناس، والتنكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر ويحسن بها الفخر، فإنه من يصلح نيته فيما بينه وبين الله ولو على نفسه يكفه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين للناس بما يعلم الله منه غير ذلك شأنه الله^(٢) .

ثم لما اتسعت رقعة الدولة وكثرت الخصومات خصص بعض القضاة في النظر في بعض أنواع القضايا، كما خصص كل قاض لمنطقة محددة لا يتعدها أى أن القضاء تخصص بالمكان والزمان بل وبالأقضية، كما عرف الفقه الاسلامى فكرة المحكمة من تخصيص مكان معين في البلد أو الجهة ومن تقييد القاضى بأيام خاصة في الاسبوع لا يقضى الا فيها . كما عرف القضاء الجزئى والكلى .

كما عرف الفقه الاسلامى نظام التحكيم واشترط الفقهاء في الحكم أن تكون له صفة القاضى، كما عرف نظام النيابة العامة والنيابة الادارية ومحكمة القضاء الادارى وقسم الفتوى والرأى وذلك بما يسمى بولاية الحسبة وولاية المظالم والافتاء .

أما من ناحية المال والملك والنظم الاجتماعية فان الفقهاء

(١) الظنين : المتهم .

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين ٢ / ٢٣ ، وكتاب الكامل للمبرد الجزء الأول (وشأنه) أى ابغضه الله .

توسعوا في بحث الملكية وموارد المال ومصارفه والقيود التي وضعها الشارع على المالكين وما ألزمهم به من واجبات نحو المحتاجين لأعلى سبيل المنة وانما على أنه حق مفروض عليهم في أموالهم يقتضيه التعاون الجماعي والأخاء الانساني .

ويبحث الفقهاء ذلك ضمن أبحاثهم وكتاباتهم عن الزكاة والعشور^(١) والخراج^(٢) وعن بيان أحكام الكنوز والركاز بل منهم من أفرد ذلك في كتاب خاص كأبي عبيد القاسم بن سلام في كتابه «الأموال» والقاضي أبويوسف في كتابه «الخراج» ويحيى بن آدم القرشي في كتابه الذي أسماه «الخراج» أيضا .

فالناحية المالية والاقتصادية وضعت لها في الاسلام قواعد للعدالة الاجتماعية اذ بين مدى حرية الاستثمار، التملك، وكفل للفقير العاجز عن الكسب حاجته أيا كانت ديانتة، ولذا فان التكافل الاجتماعي في نظر الاسلام مكفول الى أبعد الحدود، ودعا اليه ووضع أسسه ولم يقصره على الناحية المالية بل جعله تكافلا في كل النواحي .

يقول هـ . ج . ويلز في كتابه «صانعو التاريخ» ان الحاح الاسلام الشديد على المساواة بين الناس مهما كانت عقيدتهم أو طبقتهم وتطبيق الأخوة الاسلامية بصفة عملية قد جعلت هذا الدين من أعظم القوى الفعالة في عالمنا الحديث .

(١) العشور : هي الضريبة المفروضة على أموال التجارة الصادرة من البلاد الاسلامية، أو الواردة اليها .
(٢) الخراج : هو ماقرر من المال على الأراضى التي كانت في أيدي المشركين، واستولى عليها المسلمون بالحرب والقوة، أو صولح عليها المشركون وبقيت في أيدي أهلها، وذلك كأراضى فارس والشام ومصر التي فتحت في زمن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه .

لقد ألبس الدين الاسلامي كل شيء في أمور المسلمين ثوب التشريع، وأخذت الأجيال المتعاقبة في تنمية هذا التشريع، كما تطور في الأزمنة والأمكنة المتباينة حتى وصل الى بناء عظيم ضخم يعتمد على أسس قوية صالحة لتحمل كل جديد، فأصبح بحمد الله تعالى تشريعا منظما للعلاقات الانسانية تنظيما دقيقا، وكفلت تعاليمه اسعاد البشرية وكفالة العيش الكريم لكل فرد في المجتمع .

تقول دائرة معارف « تشامبر » إن أهم التعاليم الاسلامية التي تكشف عن عظمة العقل الذي جاء بها هو النظام الأخلاقي القرآني - ولا تحصر سورة أو اثنتان أو ثلاثة كل هذه التعاليم ولكنها تنتشر في القرآن كله كالخيطة الذهبى الذى يتخلل نسيج الثوب . والقرآن يعتبر الظلم والكذب والكبر والحقد والنميمة والسخرية بالغير والبخل والتبذير والفجور والشك في الناس من الرذائل التي لا يرضاها الله تعالى . أما الاحسان والكرم والحياء والاحتمال والصبر والاعتدال والاخلاص والاستقامة وحب الحق والسلام والايمان بالله واحد والخضوع له، كل هذه الصفات هى أعمدة الحياة النقية والعلاقة التي يتميز بها المؤمن الحق » .

ولا شك أن فكرة الدولة في الاسلام ظاهرة بوضوح وجلاء في فكرة الهجرة، فلما آذت قريش المسلمين وعذبتهم في مكة أيقن الرسول الكريم أنه لا بد لحماية الدعوة من وجود قوة ومنعة لأن الحق والحرية يعيشان في ظل القوة والنظام، ونفاذ الأحكام لا يتأتى بدون سلطة، فان الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، كما روى عن عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه .

ومن هنا كان التلازم في الاسلام بين الدعوة إلى الدين وبين قيام الدولة، فليس الاسلام مجرد دين يتعبد به، وإنما هو دين ودولة فجاءت أحكامه لهذا متناولة كل النواحي، وجاءت بأكمل النظم التي تكفل للبشرية كلها الفلاح والصلاح في كل وقت، ولذا فإن نصوص التشريع - كما أشرنا - جاءت مجملة تلمس القواعد الكلية والنقاط الرئيسية ليكون في وسع المجتهدين استنباط أحكام الجزئيات وما يجد في عصورهم على ضوء قواعد التشريع مع ملاحظة مسايرة مصالح الناس .

ولذا فإن أحكام الفقه الاسلامي بمصادره المرنة جعلت الدولة الاسلامية وقد حكمت رقعة فسيحة من العالم من بلاد الصين شرقا إلى المحيط غربا وجزء كبيرا من غرب أوروبا وكل شمال أفريقيا من أعظم الدول التي عرفها التاريخ وأعدلها وجعلتها قدوة ومنارة شع على العالم بنور حضارتها ومنبعها وأساسا لكثير من النظم والحضارات ولا غرو فإنه تشريع قام على العلم والتعلم والعدل والمساواة وخاطب العقل في جميع أحكامه .



بين الماضى والمستقبل

وبعد هذا العرض الموجز لأثر الثقافة الإسلامية في الثقافة العالمية وتأثرها بها، وحفظ الإسلام للثقافات السابقة، فإنك واجد أن هذه النهضة العلمية قد ظهرت بين أبناء الصحراء بمجرد انقضاء القرن الأول الهجرى، وبعد أن تأصلت تعاليم الاسلام في النفوس واستقر نفوذه وسلطانه، ففي تلك اللحظة انبعثت العلوم والمعارف، وتفتحت البراعم وظهرت العلوم العربية الاسلامية على كثرة تنوعها، وبعد فترة وجيزة عمت العالم وأصبحت ثقافة عالمية أنارت الطريق أمام الباحثين في كل ميدان، وكانت أساسا للنهضات العلمية والاجتماعية.

يقول المستشرق كويلر يونج رئيس قسم الدراسات الشرقية في جامعة برنستون عن أثر الاسلام في الغرب المسيحي: فعندما انتقلت عاصمة الاسلام إلى بغداد فى منتصف القرن الثامن الميلادى كان عصر الفتوح قد انتهى، وأصبح ماجاء به القرآن من لغة وقانون ودين يحكم منحودود الصين إلى أعمدة «هرقل». وفى خلال خمسمائة السنة التي حكم فيها العباسيون نمى الاسلام نظامه الفكرى وثقافته المتجانسة على أساس من الاحياء البارع للمعارف الكلاسيكية في القرنين التاسع والعاشر الميلادى وهو «الرينسانس» الشرقى.

هذا الاحياء الثقافى في ذينك القرنين - وفي القرن الذى تلاهما

حيث بلغت الثقافة الاسلامية قمة تطورها- هو الذى نقل إلى العالم اللاتيني خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وأصبح جزءاً من حضارة العصور الوسطى المسيحية، وهذا بدوره أصبح أساس «الرينسانس» الغربى في القرنين الخامس عشر والسادس عشر^(١).

ويقول جوستاف لوبون^(٢): كان للحضارة الاسلامية تأثير عظيم في العالم، وأن المسلمين هم الذين فتحوا لأوروبا ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية، بتأثيرهم الثقافي، فكانوا بالفعل ممدنين لنا وأئمة لنا طيلة ستة قرون.

فالمسلمون هم الذين تفجرت فيهم ينابيع العلوم والمعارف وأنهم الذين سبقوا إلى أخذ الثقافات المختلفة وحفظوها وتداولوها بعد أن صهروها فى بوتقة الاسلام وتعاليمه الرفيعة ضنا بها عن أن تنفلت من أيديهم واتباعا لتوجيه نبيهم عليه الصلاة والسلام إذ يقول: **(الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها)**. فلم يكونوا جامدين ولا متخلفين ولكن قوة نفوسهم ومضاء عزيبتهم وعظمة قلوبهم وتربية الاسلام لهم دفعهم إلى أن يأخذوا من كل شيء أحسنه، وأن يجولوا في ميادين العلوم ومختلف الثقافات ليحققوا خلافة الله في الأرض ويستعمروها كما أمر الله بالعدالة والقسط كما يقول جل شأنه: **﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾** «سورة هود: ٦١».

لقد سبق المسلمون إلى كل ذلك وغيرهم يغط في سبات عميق

(١) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة. جمع وتحقيق محمد خلف الله. القاهرة ١٩٥٠، ص ٢٣٢-٢٥٨

(٢) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص ٥٧٩.

ويتخبط في ظلام جهله حتى اذا فتح هؤلاء الآخرون أعينهم لتعرف الحقائق بمقتضى التطلع الانساني الكامن في النفوس والغرائز لم يجدوا لهم مأخذ ينزعون عن قوسه ويعشون إلى ضوئه سوى تلك المعارف الاسلامية التي علمهم دينهم بعضها وأرشدتهم إلى تعرف بعضها حتى يستطيعوا أن يحققوا مفاهيم الاسلام في عمارة الأرض والانتفاع بكل مافي الكون مما يعود على الانسانية بالخير والبركة .

يقول الأستاذ فيشر: « في محيط الحضارة الرومانية الجرمانية التليدة جاء الفاتحون المسلمون بتيارات فكرية عذبة من دمشق والقاهرة وبغداد، وأضحوا سبيل الوصل مرة أخرى بين أوروبا ومنابع العلوم والفنون في الشرق حين سدت سبل الاتصال بين الغرب والشرق، على أن سر قوة العرب هو أن حضارتهم لم تكن عنصرية بل دينية، فالنقاء العنصرى لم يكن مما استهدفه أو سعى اليه الفاتحون المسلمون، اذ تزوجوا من الأسبانيات، ولم يحجبوا عن استجلاب مهرة الفنانين والصناع البيزنطيين، كما اعتمدوا في زراعة الأرض على الفلاحين الوطنيين»^(١).

كان هذا حين كانت أمة الاسلام قوية فتية متماسكة ويقظة حية لا هم لها الا ترسم خطى نبيها الكريم وتتبع دعوة الاسلام من ينابيعها على وجهها الصحيح، لا أنها تأخذ هذا الدين على أنه مجرد طقوس وتلاوات أو تعاويذ فلما خلا المسلمون من تلك المعانى الكريمة وتفككت روابطهم ضعف سلطانهم، وتأخروا ويشرح لنا المفكر النمساوى المسلم محمد أسد (ليبولدفايس) أسباب هذا

(١) فيشر: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ترجمة محمد مصطفى زيادة، والبار العربى، القسم الثاني، ص ٣٩٥.

التأخر في كتابه : « الاسلام على مفترق الطرق » فيقول : إن الحياة الاسلامية في الواقع تظهر على كل حال في أيامنا الحاضرة بعيدا جدا عن الامكانيات المثلى التي تقدمها التعاليم الدينية الاسلامية، فما كان في الاسلام تقدما وحيوية، أصبح بين المسلمين اليوم تراخيا وركودا .

ويقول : إن ثمة سببا واحدا فقط للانحلال الاجتماعي والثقافي بين المسلمين، وذلك السبب يرجع الى الحقيقة الدالة على ان المسلمين اخذوا شيئا فشيئا يتركون اتباع روح التعاليم الاسلامية، فنتج عن هذا ان الاسلام ظل بعد ذلك موجودا، ولكنه كان جسدا بلا روح لقد تخلفنا، وضعفنا، يوم أن تركنا ديننا الحق .

إننا نستطيع أن ندير محركات قوانا من جديد، فبلادنا الاسلامية هي محور الأرض، قلب العالم، ومواردنا هي التي تدير عجلات الحضارة، وديننا - من وجهتيه الروحية والمادية - لا يزال بالرغم من العقبات الهائلة التي خلقها تأخر المسلمين - أعظم قوة ناهضة عرفها البشر . فإن لدى المسلمين أكبر ذخيرة من القيم الأخلاقية والاجتماعية والسياسية، واذا هم نهجوا نهج أسلافهم الأولين في الافادة من تلك القيم في اصلاح حياتهم وتنظيم صفوفهم وجمع كلمتهم استطاعوا أن يكونوا عاملا مؤثرا في توجيه الانسانية إلى الخير، وفي مقاومة عوامل الجشع والاستغلال التي تعكر السلام، وتفسد العلاقات الدولية، وتهدد العالم بالدمار والفناء .

لقد حققت أمم العالم الكبرى تقدما علميا ماديا مذهلا، وامتلكت بذلك من أساليب السيطرة والقهر والدمار ما ينذر بالشر

المستطير، ومكمن الداء في حضارة العالم المعاصر أنها حضارة علمية مادية، تقدم علمها وتأخرت ثقافتها فأفلت زمامها من يد البشرية، ولم تستطع محاولاتها بعد أن ترده إلى قيم روحية أو أخلاقية وازعة، وقد تنبه لهذا الخطر بعض علماء الغرب فقالوا: إذا لم ينجح الغرب في الموازنة بين تقدمه الروحي والثقافي وتقدمه العلمي فإن الحضارة الأوروبية ستصير إلى الفناء. يقول الفيلسوف الألماني شلنجر في كتابه «أفول الغرب» إن الحضارة الأوروبية طغت فيها المادية على الروح، وهذا بداية النهاية لها، رغم ماخذع به البصر، من التقدم العمراني والمادى.

ثم يقول: وما مرحلة الحضارة الحالية الا غمرة المدنية المضللة ببهرجها الذى يسترفقها الروحي، فهى سائرة بخطى واسعة إلى الفناء المحتوم الذى أصاب الحضارات السابقة، تلك سنة الوجود ولا راد لأمر الله.

ثم يقول: إن الحضارة دورات فلكية، تغرب هنا لتشرق هناك، وإن حضارة جديدة أوشكت على الشروق في أروع صورة، هى حضارة الاسلام الذى يملك اليوم أقوى قوى روحانية عالمية نقية».

والمتتبع للمكتبة الأوربية، يرى سيلاً من الكتب المتلاحقة، تبكى حضارة أوربا الغارقة في اللهب، المنبعث من مصانعها ومعالمها، وترثى قلبها الذى أوشك على الهمود، بعد أن جحد وألحد، وابتعد عن رب الحياة وخالقها.

والمسلمون اليوم هم أجدر الناس بانتشال الانسانية من بحور الشر والضلال فهم وحدهم بما يملكون من عقيدة فريدة يستطيعون

احلال السلام والوئام محل اللدد والخصام في قلب الانسانية الذى
يكاد ينزف آخر قطرة من قطرات الحياة .
وذلك فضل يؤتيه من اتبع رضوانه، وقام على سبيل الحق
والعدل والسلام .

المحتويات

| الموضوع | الصفحة |
|-------------|--------|
| مقدمة | ٥ |

الفصل الأول:

| | |
|--|----|
| العلم في الاسلام | ١١ |
| مراكز العلم في الدول الاسلامية | ١٩ |
| الفتح الاسلامي وأثره في الثقافة | ٣١ |
| عناية علماء المسلمين بنشر | |
| الثقافة العالمية عن طريق الترجمة | ٤٣ |

الفصل الثاني:

| | |
|---|----|
| الثقافة الاسلامية وأثرها في الحضارة | ٥٧ |
|---|----|

الفصل الثالث :

| | |
|--|-----|
| الثقافة الاسلامية في الناحية التشريعية | ١١١ |
| بين الماضي والمستقبل | ١٤١ |

صدر من هذه السلسلة

- ١ - تأملات في سورة الفاتحة د. حسن باجوادة
- ٢ - الجهاد في الإسلام مراتبه ومطالبه أ. أحمد محمد جمال
- ٣ - الرسول في كتابات المستشرقين أ. نذير حمدان
- ٤ - الإسلام الفاتح د. حسين مؤنس
- ٥ - وسائل مقاومة الغزو الفكري د. حسان محمد مرزوق
- ٦ - السيرة النبوية في القرآن د. عبد الصبور مرزوق
- ٧ - التخطيط للدعوة الإسلامية د. محمد علي جريشة
- ٨ - صناعة الكتابة وتطورها في العصور الإسلامية د. أحمد السيد دراج
- ٩ - التوعية الشاملة في الحج أ. عبد الله بوقس
- ١٠ - الفقه الإسلامي أفاقه وتطوره د. عباس حسن محمد
- ١١ - لمحات نفسية في القرآن الكريم د. عبد الحميد محمد الهاشمي
- ١٢ - السنة في مواجهة الأباطيل أ. محمد طاهر حكيم
- ١٣ - مولود على الفطرة أ. حسين أحمد حسون
- ١٤ - دور المسجد في الإسلام أ. محمد علي مختار
- ١٥ - تاريخ القرآن الكريم د. محمد سالم محيسن
- ١٦ - البيئة الإدارية في الجاهلية وصدور الإسلام أ. محمد محمود فرغلي
- ١٧ - حقوق المرأة في الإسلام د. محمد الصادق عفيفي
- ١٨ - القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته [١] أ. أحمد محمد جمال
- ١٩ - القراءات أحكامها ومصادرها د. شعبان محمد اسماعيل
- ٢٠ - المعاملات في الشريعة الإسلامية د. عبد الستار السعيد
- ٢١ - الزكاة فلسفتها وأحكامها د. علي محمد العماري
- ٢٢ - حقيقة الإنسان بين القرآن وتصور العلوم د. أبو اليزيد العجمي
- ٢٣ - الأقليات المسلمة في آسيا وأستراليا أ. سيد عبد المجيد بكر
- ٢٤ - الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر د. عدنان محمد وزان
- ٢٥ - الإسلام والحركات الهدامة معالي عبد الحميد حمودة
- ٢٦ - تربية النشء في ظل الإسلام د. محمد محمود عمارة
- ٢٧ - مفهوم ومنهج الاقتصاد الإسلامي د. محمد شوقي الفنجري
- ٢٨ - وحي الله د. حسن ضياء الدين عتر
- ٢٩ - حقوق الإنسان وواجباته في القرآن أ. حسن أحمد عبد الرحمن عابدين
- ٣٠ - المنهج الإسلامي في تعليم العلوم الطبيعية أ. محمد عمر القصار
- ٣١ - القرآن كتاب أحكمت آياته [٢] أ. أحمد محمد جمال

- ٣٢- الدعوة في الإسلام عقيدة ومنهج د. السيد رزق الطويل
- ٣٣- الاعلام في المجتمع الإسلامي أ. حامد عبد الواحد
- ٣٤- الالتزام الديني منهج وسط الشيخ عبد الرحمن حسن حبيكة
- ٣٥- التربية النفسية في المنهج الإسلامي د. حسن الشرقاوي
- ٣٦- الإسلام والعلاقات الدولية د. محمد الصادق عفيفي
- ٣٧- العسكرية الإسلامية ونهضتنا الحضارية اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ
- ٣٨- معاني الأخوة في الإسلام ومقاصدها د. محمود محمد بابلي
- ٣٩- النهج الحديث في مختصر علوم الحديث د. علي محمد نصر
- ٤٠- من التراث الاقتصادي للمسلمين د. محمد رفعت العوضي
- ٤١- المفاهيم الاقتصادية في الإسلام د. عبد العليم عبد الرحمن خضر
- ٤٢- الأقليات المسلمة في أفريقيا د. سيد عبد المجيد بكر
- ٤٣- الأقليات المسلمة في أوروبا د. سيد عبد المجيد بكر
- ٤٤- الأقليات المسلمة في الأمريكتين د. سيد عبد المجيد بكر
- ٤٥- الطريق إلى النصر أ. محمد عبد الله فودة
- ٤٦- الإسلام دعوة حق د. السيد رزق الطويل
- ٤٧- الإسلام والنظر في آيات الله الكونية د. محمد عبد الله الشرقاوي
- ٤٨- محض مفتریات د. البدر اوي عبد الوهاب زهران
- ٤٩- المجاهدون في فطان أ. محمد ضياء شهاب
- ٥٠- معجزة خلق الإنسان د. نبيه عبد الرحمن عثمان
- ٥١- مفهوم القيادة في إطار العقيدة الإسلامية د. سيد عبد الحميد مرسي
- ٥٢- ما يختلف فيه الإسلام عن الفكر الغربي والماركسي أ. أنور الجندي
- ٥٣- الشورى سلوك والتزام د. محمود محمد بابلي
- ٥٤- الصبر في ضوء الكتاب والسنة أ. أسماء عمر فدعق
- ٥٥- مدخل إلى تحصين الأمة د. أحمد محمد الخراط
- ٥٦- القرآن كتاب أحكمت آياته [٣] أ. أحمد محمد جمال
- ٥٧- كيف تكون خطيباً الشيخ عبد الرحمن خلف
- ٥٨- الزواج بغير المسلمين الشيخ حسن خالد
- ٥٩- نظرات في قصص القرآن أ. محمد قطب عبد العال
- ٦٠- اللسان العربي والإسلامي معاً في مواجهة التحديات د. السيد رزق الطويل
- ٦١- بين علم آدم والعلم الحديث أ. محمد شهاب الدين الندوي
- ٦٢- المجتمع الإسلامي وحقوق الإنسان د. محمد الصادق عفيفي
- ٦٣- من التراث الاقتصادي للمسلمين [٢] د. رفعت العوضي
- ٦٤- تصحيح مفاهيم حول التوكل والجهاد الشيخ عبد الرحمن حسن حبيكة
- ٦٥- لماذا وكيف أسلمت [١] الشهيد أحمد سامي عبد الله
- ٦٦- أصلح الأديان عقيدة وشريعة أ. عبد الغفور عطار

| | | |
|------|---|----------------------------------|
| ٦٧- | العدل والتسامح الإسلامي | أ. أحمد المخزنجي |
| ٦٨- | القرآن كتاب أحكمت آياته [٤] | أ. أحمد محمد جمال |
| ٦٩- | الحريات والحقوق الإسلامية | أ. محمد رجا حنفي عبد المتجلي |
| ٧٠- | الإنسان الروح والعقل والنفس | د. نبيه عبد الرحمن عثمان |
| ٧١- | موقف الجمهوريين من السنة النبوية | د. شوقي بشير |
| ٧٢- | الإسلام وغزو القضاء | الشيخ محمد سويد |
| ٧٣- | تأملات قرآنية | د. عصمة الدين كركر |
| ٧٤- | الماسونية سرطان الأمم | أ. أبو إسلام أحمد عبد الله |
| ٧٥- | المرأة بين الجاهلية والإسلام | أ. سعد صادق محمد |
| ٧٦- | استخلاف آدم عليه السلام | د. علي محمد نصر |
| ٧٧- | نظرات في قصص القرآن [٢] | أ. محمد قطب عبد العال |
| ٧٨- | لماذا وكيف أسلمت [٢] | الشهيد أحمد سامي عبد الله |
| ٧٩- | كيف نُدرّس القرآن لأبنائنا | أ. سراج محمد وزان |
| ٨٠- | الدعوة والدعاة .. مسؤولية وتاريخ | الشيخ أبو الحسن الندوي |
| ٨١- | كيف بدأ الخلق | أ. عيسى العرباوي |
| ٨٢- | خطوات على طريق الدعوة | أ. أحمد محمد جمال |
| ٨٣- | المرأة المسلمة بين نظرتين | أ. صالح محمد جمال |
| ٨٤- | المبادئ الاجتماعية في الإسلام | أ. محمد رجا حنفي عبد المتجلي |
| ٨٥- | التأمر الصهيوني الصليبي على الإسلام | د. إبراهيم حمدان علي |
| ٨٦- | الحقوق المتقابلة | د. عبد الله محمد سعيد |
| ٨٧- | من حديث القرآن على الإنسان | د. علي محمد حسن العماري |
| ٨٨- | نور من القرآن في طريق الدعوة والدعاة | أ. محمد الحسين أبو سم |
| ٨٩- | أسلوب جديد في حرب الإسلام | أ. جمعان عايض الزهراني |
| ٩٠- | القضاء في الإسلام | أ. سليمان محمد العيضي |
| ٩١- | دولة الباطل في فلسطين | الشيخ القاضي محمد سويد |
| ٩٢- | المنظور الإسلامي لمشكلة الغذاء وتحديد النسل | د. حلمي عبد المنعم جابر |
| ٩٣- | التهجير الصيني في تركستان الشرقية | أ. رحمة الله رحمتي |
| ٩٤- | الفطرة وقيمة العمل في الإسلام | أ. اسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي |
| ٩٥- | أوصيكم بالشباب خيراً | أ. أحمد محمد جمال |
| ٩٦- | المسلمون في دوائر النسيان | أ. أسماء أبو بكر محمد |
| ٩٧- | من خصائص الإعلام الإسلامي | أ. محمد خير رمضان يوسف |
| ٩٨- | الحرية الاقتصادية في الإسلام | د. محمود محمد بابللي |
| ٩٩- | من جماليات التصوير في القرآن الكريم | أ. محمد قطب عبد العال |
| ١٠٠- | مواقف من سيرة الرسول ﷺ | أ. محمد الأمين |
| ١٠١- | اللسان العربي بين الانحسار والانتشار | الشيخ محمد حسن بن خلاف |

- ١٠٢ - أخطأ رحول الإسلام السيد هاشم عقيل عزوز
- ١٠٣ - صلاة الجماعة د. عبد الله محمد سعيد
- ١٠٤ - المستشرقون والقرآن د. اسماعيل سالم عبد العال
- ١٠٥ - مستقبل الإسلام بعد سقوط الشيوعية أ. أنور الجندي
- ١٠٦ - الاقتصاد الإسلامي هو البديل د. شوقي أحمد دنيا
- ١٠٧ - توجيه وإرشاد الشباب المسلم نحو قضاء وقت الفراغ أ. عبد المجيد أحمد منصور
- ١٠٨ - المخدرات مضارها على الدين والدنيا د. ياسين الخطيب
- ١٠٩ - في ظلال سيرة الرسول ﷺ أ. أحمد المخزنجي
- ١١٠ - أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أ. محمود محمد كمال عبد المطلب
- ١١١ - زينة المرأة بين الإباحة والتحريم د. حياة محمد علي خفاجي
- ١١٢ - التربية الإسلامية كيف نرغبها لأبنائنا د. سراج محمد عبد العزيز وزان
- ١١٣ - النموذج العصري للجهاد الأفغاني أ. عبد رب الرسول سيف
- ١١٤ - المسلمون حديث ذو شجون أ. أحمد محمد جمال
- ١١٥ - الترف وأثره في المجتمع من خلال القرآن الكريم أ. ناصر عبد الله العمار
- ١١٦ - المسلمون في بو رما .. التاريخ والتحديات أ. نور الإسلام بن جعفر علي آل فايز
- ١١٧ - آثار التبشير والاستشراق على الشباب المسلم د. جابر المتولي تميمة
- ١١٨ - اللباس في الإسلام أ. أحمد بن محمد المهدي
- ١١٩ - أسس النظام المالي في الإسلام أ. محمد أبو الليث
- ١٢٠ - المستشرقون والقرآن [٢] د. اسماعيل سالم عبد العال
- ١٢١ - الإسلام هو الحل أ. محمد سويد
- ١٢٢ - نظرات في قصص القرآن أ. محمد قطب عبد العال
- ١٢٣ - من حصاد الفكر الإسلامي د. محمد محي الدين سالم
- ١٢٤ - خواطر إسلامية أ. ساري محمد الزهراني
- ١٢٥ - الإسلام ومكافحة المخدرات أ. اسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي
- ١٢٦ - دروس تربوية نبوية أ. صالح أبو عراد الشهري
- ١٢٧ - الشباب المسلم بين تجربة الماضي وأفاق المستقبل د. عبد الحليم عويس
- ١٢٨ - من سمات الأدب الإسلامي د. مصطفى عبد الواحد
- ١٢٩ - خطوات على طريق الدعوة [الجزء الأول] أ. أحمد محمد جمال
- ١٣٠ - خطوات على طريق الدعوة [الجزء الثاني] أ. أحمد محمد جمال
- ١٣١ - المسجد البابرقي قضية لا تنسى أ. عبد الباسط عز الدين
- ١٣٢ - التدريس في مدرسة النبوة د. سراج عبد العزيز الوزان
- ١٣٣ - الإعلام الإسلامي ووسائل الاتصال الحديث أ. ابراهيم اسماعيل
- ١٣٤ - تسخير العلم والعمل لمجد الإسلام د. حسن محمد باجودة
- ١٣٥ - منهاج الداعية أ. أحمد أبو زيد
- ١٣٦ - في جنوب الصين الشيخ محمد بن ناصر العبودي

- ١٣٧- التنمية والبيئة دراسة مقارنة د. شوقي أحمد دنيا
- ١٣٨- الشريعة الإسلامية شريعة العدل والفضل د. محمود محمد بابلي
- ١٣٩- سقوط الأيديولوجيات أ. أنور الجندي
- ١٤٠- الطفل في الإسلام أ. محمود الشرقاوي
- ١٤١- التوحيد فطرة الله التي فطر الناس عليها أ. فتحي بن عبد الفضيل بن علي
- ١٤٢- لمحات من الطب الإسلامي د. حياة محمد علي جفاجي
- ١٤٣- الإسلام والمسلمون في ألبانيا د. السيد محمد يونس
- ١٤٤- أحمد محمد جمال (رحمه الله) مجموعة من الأساتذة الكتاب
- ١٤٥- الهجوم على الإسلام في الروايات الأدبية أ. أحمد أبو زيد
- ١٤٦- الإسلام والنظام العالمي الجديد (الطبعة الثانية) د. حامد أحمد الرفاعي
- ١٤٧- من جماليات التصوير في القرآن الكريم أ. محمد قطب عبد العال
- ١٤٨- الواقع الاستهلاكي للعالم الإسلامي أ. زيد بن محمد الرماني
- ١٤٩- الماسونية والمرأة أ. جمعان بن عايش الزهراني
- ١٥٠- جوانب من عظمة الإسلام أ. اسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي
- ١٥١- الأسرة المسلمة د. حسن محمد باجودة
- ١٥٢- حرب القوقاز الأولى د. أحمد موسى الشيشاني
- ١٥٣- المفاهيم الاستهلاكية في ضوء القرآن والسنة النبوية - الجزء الثاني أ. زيد بن محمد الرماني
- ١٥٤- المسلمون في جمهورية الشاشان وجهادهم في مقاومة الغزو الروسي د. السيد محمد يونس
- ١٥٥- القدس في ضمير العالم الإسلامي اعداد مجموعة من الباحثين
- ١٥٦- الطريق إلى الوحدة الإسلامية اعداد مجموعة من الباحثين
- ١٥٧- المركز القانوني الدولي لمدينة القدس د. جعفر عبد السلام
- ١٥٨- الحوار النافع بين أصحاب الشرائع أ. عبد الرحمن الحوراني
- ١٥٩- الإنسان والبيئة أ. علي راضي أبو زريق

هذا الكتاب

الحضارة .. التمدن .. الرقي .. كلمات شجية وجميلة خاصة إذا كانت مدلولاتها جامعة بين الأمور المادية والروحانية في امتزاج وتزاوج رائع كما هو الأمر في الحضارة الإسلامية العريقة التي اتسقت فيها الجوانب الروحية مع الحاجات المادية فرسخت قيماً ومثلاً لم تسبقها إليها حضارة أخرى ولم تصل إليها مدنية معروفة .. شهد بذلك الأعداء قبل الأصدقاء .

وهذا الكتاب هو إضافة مركزة عن جهود المسلمين في بناء حضارة راقية أثرت تمام التأثير في ثقافة العالم وحضارته وكانت نقلة أساسية للتقدم والاختراعات المدهشة التي بهرت العالم في مختلف المجالات خاصة الطب وغزو الفضاء .. والبت الفضائي المباشر وغير ذلك .

والعقل المسلم يعشق البحث وحرية استقصاء المعلومات وتطويرها إضافة أو تنقيحاً ولعل المخطوطات الكثيرة المتنوعة في كل مجالات العلوم والفنون توضح المدى الذي وصل إليه علماء الإسلام وهذه المخطوطات ما تزال رهيبة الأقبية ومخازن الكتب في عدد من دول العالم الغربي والشرقي على السواء .

إن قراءة سريعة لهذا الكتاب تعطي فكرة شمولية عن أهمية الثقافة والحضارة الإسلامية كما توضح بجلاء دور الإسلام في إثراء الثقافة العالمية وآدابها وعلومها وأن العودة إلى الجذور والأصالة هي الطريق السليم إلى عودة الحضارة الإسلامية إلى هذا العالم .. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

محمد محمود حافظ